ثالث ثلاثة

«شظايا الذات»

الكتاب: ثالث ثلاثة «شظايا الذات» ـ رواية

تأليف: أشرف المسمار

بيروت ـ لبنان ـ طريق المطار ـ سنتر زعرور ـ ط 4

الهاتف: 9613944799

E-mail: nariman.alloush@hotmail.com

2024

ISBN: 978-614-8059-10-0

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت «إلكترونية» أو «ميكانيكية» أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلاّ بموافقة كتابية من المؤلف ومقدمًا.

All rights reserved. No part of this book shall be reproduced or saved in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopy, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

أشرف المسمار

ثالث ثلاثة

«شظايا الذات»

رواية

دار ناريمان للنشر والطباعة والتوزيع

إهداء

أهدي هذا الكتاب
إلى كلّ مَن تشظّت روحه بمتاهات النفس،
وإلى كلّ من ضاعت خُطاه في درب الحياة...

1

في وادٍ ضبابي في جبال الكاربات[1]، ضمن محيط غابة من الأشجار العالية. تسير ببطء، أمامك سلالم عالية، تزيد عدد درجاتها عن الألف ونيف، تؤدّي إلى بوابة القلعة. قلعة بران المشهورة بـ قلعة دراكولا المرتبطة بالأمير الروماني في القرن الخامس عشر، «فلاد المخوزِق» رغم أنّه لم يعش هناك أبدًا. وقد عرف بهذا الاسم بسبب قتله وتعذيبه الكثير من مخالفيه وأعدائه بالخازوق.

تصل إلى مدخل القلعة الواقعة على صخرة شاهقة، حيث جدران القلعة القديمة السوداء تطلّ على أبدع منظر من الطبيعة حيث التلال والوديان المجاورة تشبه العيون البشرية. تحيط بها الأشجار العالية المغطاة بالضباب في كثير من أشهر السنة. هي كذلك، ما زالت على حالها على الرغم من مرور مئات السنين.

(1) تقع في جنوب شرقي أوروبا الوسطى، شمالي مجرى الدانوب ما بين مدينة ڤيينا وجمهورية مولداڤيا. تمتد على 1300كم و1500كم طولًا، في حين لا يزيد بعدها الخطي الأقصى على 500كم.

في ساحتها التي تتوسط القلعة بئر عميقة، نُقِش على جدارها «لديك الماء، لكن ليس لديك الروح».

للصعود من طابق إلى آخر نحو الطوابق العليا في القلعة تستخدم دهليزًا ضيّقًا جدًّا وأحيانًا بعض الأبواب السريّة وصولًا إلى إحدى الطوابق، تحتوي إحدى غرفه على ممتلكات دراكولا.

كما تتضمّن أصعب الأماكن الموجودة في القلعة، غرفة التعذيب... يخرج الزائرون منها وعلامات الاستياء تظهر على ملامحهم وكأنّ صُوَرَ وأصوات المعذَّبين تملأ المكان ولم تغادره. فيها كلّ أدوات التعذيب من خوازيق وكراسٍ مليئة بالمسامير وأجهزة لشدّ أجسام الضحايا وصفائح تستخدم لشواء الناس. سوف تجد فيها أيضًا لوحات مكتوبة على الجدران توثّق الكثير من ذلك.

الغرفة مليئة بأدوات التعذيب الوحشي مرفقة بوصف دقيق لسبب استخدام كلّ نوع منها مع رسومات تظهر كيف كانوا يعذّبون الناس في تلك الفترة.

يلاحظ دماء حديثة على بعض الأدوات وآثار وبقايا بشريّة لم تجفّ بعد وكأنّ حدثًا، للتو قد وقع.

نافذة هذه الغرفة الجريرة الآثمة، تطلّ على الساحة. ستفاجئك تلك الآلة المعدنية غريبة الشكل وكأنّها وضعت حديثًا وفي غير مكانها: أشبه بقضيب معدني طويل وحاد

يخترق جسد رجل شاب متوسط الحجم من ناحية ويخرج من الناحية الأخرى. هي الخازوق: وسيلة إعدام وتعذيب قديمة.

يلاحظ وكأنّها تلافت اختراق منطقتي الكبد والقلب، وهذا ما كان يُعتمد بُغية تأخير موت الضحية وزيادة عذاباتها.

يسود هدوء مريع، وصمت مطبق تقطعه أصوات ضئيلة، وبقايا من أشياء متناثرة. يغلّف الجو حالة من الغموض والتوتر يصعب تفسيرها. كان الظلام قد بدأ يتوارى، فيما يتدلّى فتيل ضوء من السماء ربما يكشف شيئًا من الالتباس الذي يحيط بالكثير من تفاصيل هذا المكان الذي شهد حدثًا جللًا.

كان قد تجمع نفر من المحققين ورجال الشرطة، منهم من يُبعد غير المعنيين ممّن تواجد، وآخرون يلتقطون صورًا وقد أحاطوا هذا المكان المفتوح، ما أطلقوا عليه «ساحة الجريمة»، بشرائط صفراء خاصة، مع الأخذ بالحسبان إمكان وجود عدّة مسارح للجريمة الواحدة، كأماكن مرتبطة بالإعداد لها أو تهيئة ظروف تنفيذها، وكذلك المكان الذي قد تُنقل إليه الجثّة أو مكوّنات الجريمة وآثارها، بهدف التمويه والتضليل.

يتابع آخرون إقفال جميع المداخل المؤدّية إلى مسرح الجريمة وتسجيل أسماء جميع الحاضرين وسبب حضورهم علمًا أنّهم قلّة، لأنّ التوقيت هو الصباح الباكر وبالكاد فتحت القلعة أبوابها. يعاينون عن كثب كلّ التفاصيل، بوجود أخصائيين وخبراء بلباس أبيض. يكشفون على الضحية

ويجمعون الأدلّة والآثار الممكن تواجدها داخل مسرح الجريمة.

يظهر على الضحيّة العديد من السحجات وما قد يشير إلى شجار وعراك ربما قد حدث.

بالإضافة لوشم بارز:

«يام» لديك الماء، لكن ليس لديك الروح.

وندبات لشقوق على الصدر والساعد، بالإضافة إلى توزّع شعر جسمه وكأنّه قد نتف بعضه عشوائيًا أو نبت على عجل.

على الرقبة ما يشبه آثار أنياب.

يتفحّصون ما تحت الأظافر علّها تخفي أنسجة ممّن يُفترض أن يكون الفاعل. يفتّشون الضحية، ويعزلون حاجاتها الخاصّة والتي كانت من ضمنها أوراق أشبه برسائل.

أوّل ما تمّ البحث عنه ومصادرته، وهو أشبه بالصندوق الأسود للطائرة المنكوبة، الرقيب الذي يوثّق كلّ شيء ويكشف كلّ مستور: الهاتف المحمول.

كانت قد طرحت شركة سياحية[1] مسابقة ترويجية لاختيار شخصين يقيمان خلال الليل في قلعة دراكولا، وذلك لأوّل مرّة على الإطلاق منذ أن طَرد النظام الشيوعي في رومانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مُلّاك القلعة، الملكة ماريا من

(1) شركة «إير بي إن بي» أطلقت هذه المسابقة عام 2016.

عائلة هابسبورغ صاحبة القلعة حتى عام 1920، قبل أن ترثه منها بعد وفاتها ابنتها.

وقالت إنّ الفائزَين الاثنين المغامرين، سيصلان القلعة بواسطة عربة تجرّها الجياد، يدخلانها ويستكشفانها وصولًا إلى متاهة من الدهاليز المظلمة التي تكثر في القلعة وتشتهر بها، ليكتشفا في نهاية الأمر ممرًا سريًا إلى قاعة الطعام الرئيسية. وهناك سيكون في انتظارهما عشاء على ضوء الشموع تمّ إعداده بالطريقة التقليدية لمصّاصي الدماء، مثلما ورد ذكره تمامًا في الرواية الخيالية ل برام ستوكر. وجبة دسمة تُثري الدم من شرائح اللحم البقري والدجاج بالفلفل الأحمر. وأدوات طعام ذهبية. ثم يقضيان ليلتهما في تابوتين مبطّنين بالمخمل. وحدث أن غاب عواء الذئاب وطال في هذا الليل نباح كلاب بصوت خاص.

صباح اليوم التالي وعند وصول من يشرف على القلعة والمسابقة، وُجد الضحية الشاب ميتًا على الخازوق..

كما فُقِد أثر مرافقته الألمانية غريبة الأطوار 'فردفالد' Verdwaald.

2
الرسالة الثانية

أزهرت حياتي بذلك الصباح حين كنتَ أنت، حين أصبحتَ ذاك الرجل الذي طالما كان هاجسي وطالما بحثتُ عنه.

كنتَ أنتَ من سعيتُ أن ينسيني زمنًا مضى، أن يصالح بيني وبين نفسي وصولًا لمحاولة نسيان كلّ ذلك الألم الذي ألمّ بي فيما خلا من حياتي وما تعرّضت له من صدمات ومآسٍ وأحداث أحالتني إلى نكرة. صرت بعدها أعيش في تيه بلا طريق وبلا خطى وبلا مقاصد، هائمة على وجهي.

وجدت فيك الثقة بالنفس التي بدَّدَتها كلّ تلك الاهتزازات النفسية التي صارعتني فصرعتني.

وجدت فيك قوّةً لمتابعة هذه الحياة، فلا بدّ للعيش في مجتمع شرقي من رجولة نتمتّع بها، حيث امتيازاتها لا تعدّ ولا تحصى في مقابل الغبن والسطوة والظلم الذي تتعرض له المرأة التي تظل محكومة بضوابط مجتمعية وأعراف لا تواكب عصر التكنولوجيا الذي نعيشه. خلافًا للرجل الغني بقدرٍ أعلى من الحرية والتسلطية والسيادية، وبخاصّة في زمن الحرب الذي

أرغمني عنوةً على الهجرة غير الشرعيّة تاركة هذا الشرق قاصدةً الغرب الحُلُم، الذي سوف يعيد خلط أوراق كياني وذاتي وكينونتي.

رأيت فيك أمانًا طالما أتعبني فقدُه لحدّ الضياع في زوايا هذه الدنيا.

أتدري معنى أن تجد المرأة الأمان؟ إنّه روحها التي بها فقط تستطيع أن تجد ذاتها... أن تحيا بلا خوف...

أردتك بكلّ ما يملك قلبي من مشاعر، وأحتاجك كالنّفَس، كدقّات القلب، كالماء والزاد: لأجد بك «أناي» التائهة.

أردتك لأكسر جليد ذكريات تشعرني بالبرد، وكأنّ جسدي لعنة لهذه الروح، يرهقها ويتعبها لحد العجز عن تنهيدة، حتى عشقتك حدّ الذوبان بك، أسرتني قوّة الرجل ونضوجه وحيويته، وعضلاته المشدودة، عضلات الكتفين العريضة والذراعين المفتولين، في مقابل كرهي ونفوري الشديدَين من عضلات الصدر التي قد تعيد إلى ذاكرتي صورة ثديَي المرأة.

حين صرت منك ولك وجدت نفسي داخل الدوامة ذاتها لا أرى إلّا ظلمات.... أيعقل أن عينيّ عاجزتان عن رؤية ألوانٍ تجافي السواد؟

كيف لحلم أردته وحاربت لأجله... أن يخونني؟

أكنتَ سرابَ شدَّة ولهي بك؟ سراب صورٍ كنت أنت فيها النجاة؟ سرابًا استنفذ قواي في ملاحقتك حتى أتعبني، وكلّما منه اقتربت أجد نفسي أبعد...

لمَ خذلتني؟ أرأيتني لست أهلًا لهذه الحياة التي حلمت بها؟

أكنتُ غبيّةً جدًّا ومتهوّرة جدًّا في رسم قدرٍ تخيّلته حتّى مللتَ منّي ومنه؟

أعلم أنّك تتجنّبني، تتجنّب طيفي حتّى وكأنّ ما يمكن أن يعيدك إليَّ يكاد يفتك بك. تتجنّب رؤيتي حتى في الصور الفوتوغرافية، كمتعجرف ينظر إلى طفلٍ رثٍّ يبحث عن بقايا طعام في قمامة نتنة. تتجنب أن تشعر بي وإن كانت مشاعري تهاجمك في مواقف شتّى فلا ترى إلّا نفسك التي تسعى لصقلها وصقل هذا الكائن الجديد الذي صرته أنت.

أشعر بنظرات الشفقة التي تبثّها لي، أدرك وأفهم هروبك مني.

من أنا بالنسبة إليك؟ شخص تحبه وتحترمه وتخاف عليه دائمًا؟ لأنني كنت فاقدة الكثير من الأمور والحاجات، وقرّرت أن تعوّضني عنها؟ ربّما تحبّني كحبّك لحيوان أليف أو قطّة عايشتها زمنًا ولّى.

«يم» أنا، أتذكُر اسمي؟ ذاك البحر الهائج الذي لا يُمكن للإنسان أن يُدرك قعره الذي امتلأ بالكثير من الاضطرابات حتى ارتبط بمعاني الهلاك والعذاب. وأنا سأسميكَ «يام» على اسم ابن نوح الضال الذي غرق في اليم.

من يا ترى منّا يَغرق في الآخر ومن سيُغرق الآخر؟ من سيُهلك من؟ كلانا يعلم أني كنت الأقوى، ولولا أنا ما كنت أنت...

أتدري! بي رغبة قاتلة بالصراخ لحدّ انقطاع الصوت والنفس. بي رغبة بإحراق الدنيا، ربّما بنار عجزي، وهي التي طالما أحرقتني بذاتها وبناسها وأفعالهم تجاهي.

بي رغبة لحدّ الجنون في الانتقام منك، يقينًا سأقتلك كما تكرّرت محاولاتك قتلي. لا يشوبني الشكّ بأنّ أحدنا سيقتل الآخر ويجهز عليه نهائيًا.

أغرس في صدرك سكينًا كلّما تذكّرت ابتسامة مسمومة من وعودك بحياة أفضل. أريد قطع أوردتك، استباحة وتينك ورؤية دمائك تسيل بقدر ما بكيتُ أنا على خيبتي.

ستعاني بقدر ما أحببتك تمامًا...

ثمّ... أين صغيرتنا 'نونو' من كلّ ذلك.

3
نونو

الشعور بعدم الأمان والاضطراب بشكل موازٍ لتغيرات الجسد الذي تفاجأتُ بها من دون أن أعي ما يحدث أو متى بدأت هذه التغيرات تغزوني. تبدّلات عدّة في المظهر، ترافقها أيضًا تبدلات في السلوك والمزاج.

أخوض غمار هذا البحر من المجهول شبه وحيدة. هي مرحلة عمرية دقيقة لا أعرف عنها الكثير ولا القليل حتى.

تغيرات جسدية ألحظها وتغزوني، امتلاء في الوركين والفخذين والمؤخّرة، أول ما ظننته بدانة، وإن لم تكن البدانة من سمات بقايا أسرتي التي أنتسب إليها، بل ضخامة البنية والطول ما يميزها، وبعض حبّ شباب، ونساء بثدييين صغيرين.

نمو الثديين وتبرعمهما. أوّل ما أثار ملاحظتي وقتها، ظننتها بثورًا كبيرة وورمًا يزداد حجمه بشكل هستيري، أثار ذلك في قلبي رعبًا، حتى أني واظبت على لبس «مشد» على الصدر لضغطهما. ولبست ملابس فضفاضة لإخفائهما. بالطبع فشلت في سترهما وطمسهما حتى أصابني خبلٌ، ليكتمل جنوني

لاحقًا عندما اختتمت كلّ التغيرات هذه بنزف: تجربة الحيض الأولى، كنت قد بلغت الخامسة عشر حينها. كان ذلك أسوأ يوم في حياتي. لم أكن أفهم ذاتي في تفاصيلها هذه، ولم أكن مدركة ومقتنعة في شكلها وتغيراتها الجديدة. إضافة إلى نمط حياتي ككل أيضًا، دائمًا كان هناك ما لا يعجبني وما لا أرغب به، وما يشكّل لي هاجسًا وقلقًا.

عدم الأمان والاضطراب اللّذان شعرت بهما أيضًا في غياب تلك المرأة التي لا أعلم الكثير عنها، من كان يجب أن تكون أمي. جل ما ثبت في ذاكرتي، امرأة من لبنان تحدّثني عبر الهاتف بأوقات متباعدة عندما تستطيع إلى ذلك سبيلًا من دون أن يستيقظ الشغف في داخلي ولو أني لا أشيع سرًا أني كنت أنتظر هذا الاتصال من دون أن أبني عليه أيّما أحداث أو نتائج، فقط هي رغبة أو حاجة أو لذّة، أو ربما هو ترف الشعور أن يكون لي أم. أعلم أنّها أمّي التي ولدتني ولاحقًا انفصلت عن والدي الذي يذكر أحيانًا أن جدّته من أصول تركية، تعود أيضًا إلى «رادو الوسيم»، الروماني الذي نشأ وعاش في أدرنة حيث كان وأخوه، «فلاد» القائد الروماني الذي عرف لاحقًا بـ«دراكولا»، وكانا بمثابة الضمان الذي طلبه السلطان مراد الثاني لولاء حاكم والاكيا.

لم تُذكَر والدتي بسوء على مسمعي، ولا حتى بمديح. وكأنّها وجدت فقط لاستكمال مشهدٍ في حدث ما.

للأم دور هام وضروري في السكينة والطمأنينة في حياة أطفالها بشكل عام، بل الأدق في حياة أبنائها مهما كبروا. وبشكل خاص في هذه الفترة الحرجة من التبدلات الجوهرية الجسدية والنفسية في كيان من تودّع طفلة وتستقبل امرأة.

إعادة الثقة في النفس، والتأهيل النفسي لتقبل هذه الفترة، مرحلة البلوغ والمراهقة، مع ما يرافقها من تغيّرات في المزاج، والاهتمامات. ما يثير سعادة فينا أو ما يبعث بؤسًا. هي مرحلة نمو بيولوجي طبيعية تمر بها جميع الفتيات، ولكن ليس بالوتيرة ذاتها، ولا بالثقافة الاجتماعية ذاتها، ولا ظروف الاحتضان والاحتواء ذاتها. وبالتالي تنتج تكوينًا مختلفًا لشخصية ربما كانت سِمتها العديد من الاضطرابات النفسية والسلوكية، ونظرة مختلفة للمرأة وجسدها وجنسها وما يقابلها أيضًا من الجنس الآخر.

تحتاج هذه الطفلة المرأة تشجيعًا على تقبّل شكل جسدها، أن لا تنفر منه، بل على العكس أن تقدّره تمامًا وتحترمه وتراعي خصوصيّته، أن لا تخاف منه ومن أحداثه.

تحتاج أن تشعر بالاعتزاز بسبب طبيعتها المتفردة التي منحها الله لها، طبيعة جسد المرأة المؤهل لاحتضان ونمو البشرية جمعاء في رحمها.

لا يستطيع الأب أن يكون البديل عن الأم أو حتى الراعي لهذه المرحلة الانتقالية حتى لو كان الأب الصديق الراعي

المُحتضن. فإن قدرته على التواصل مع الطفلة المرأة وفهم احتياجاتها تظل محدودة، وبخاصّة إذا ما قورنت بقدرة الأم وخصوصيتها.

فأي حال ستكون إن كانت الأم بعيدة جسديًا، وحضورها حتى النفسي، شبه غائب تمامًا. الأب كذلك، هو الآخر بعيد كل البعد، وإن وجد بجسده. وهو الذي أكدى[1] فبخِل وأمسك عن العطاء، أب طُبع بِسِمة الجدية والفتور والصمت، وصولًا إلى البلادة في الشعور والتعاطف. ليس غريبًا عنه ذلك وهو الذي عرف بالبخل أيضًا، والبخل لا يقتصر فقط على الإنفاق المادي فحسب. فالبخيل في إنفاق النقود، بخيل في إظهار المشاعر والحب والاحتواء أيضًا، إن لم يكن خاليًا منها.

كل ذلك كان كفيلًا بأن ينتج عُقَدًا واضطرابات سلوكية ونفسية وصحية.

ترعرعت في بيت يفتقر للسلوكيات الحميمية، يفتقد لاحتضان أو قبلة. لا شكّ أنّ كلّ طفل بحاجة لهذه العاطفة وممارساتها مرّات عدة يوميًا. كنت أفتقد قبلة الصباح وقبلة ما قبل النوم وأخرى للتشجيع أو للمسامحة.

عاطفة كنت أحتاجها بشدة. أفتقدها وأخجل من إظهار حاجتي لها، يملؤني الكبت في كلّ حيز من كينونتي.

---

(1) بمعنى قطع العطاء ولم يتمّه.

لجأت إلى العزلة أو أنّ العزلة فرضت نفسها عليّ حينها، أشعر بمتعة مرافقة الخراف والكلاب الثلاثة، وبضع دجاجات وديكة، كانت تقتنيها إحدى قريباتنا التي كانت ترعى أغنامها، وتخرج بها أحيانًا إلى بعض الحقول حيث يوجد بعض الرعيان. لم يطلق أحدٌ على قريبتي هذه لقب «راعية» سواي، رغم رعايتها الماشية، وذلك لما كانت تتمتع به من أناقة وجاذبية وعناية بنفسها، إضافة لقوّة الشخصية التي تتمتع بها وقوّة بدنية تبعد عنها ملامح وسلوك الضعف والقهر. هي المرأة الثلاثينية التي رفضت كلّ من تقدّم لها من رجال وإن وصف بعضهم «بالعريس اللقطة». اسمها كان 'نبال'.

كنت أقضي وقتًا معها أقرأ حينًا في كتبي المدرسية وغير المدرسية حينًا آخر. أجد متعة في جوار الخراف تفوق متعة مرافقتها ومتعة القراءة يقينًا. أشاهد الطبيعة، وعفوية حركات ما نطلق عليهم اسم حيوانات، أستمتع بالقفز واللعب وإن كانت ملامحي تخرجني تدريجيًا من الطفولة إلى طيف امرأة ناضجة.

أحب صوت مداعبة الرياح للأشجار، أشعر به لحنًا أرافقه بطَرقات إيقاعية على ما قد أجده في المكان ويصلح لأستعمله طبلة. وكثيرًا ما أكمل معزوفة الطبيعة هذه عندما أضع ما يشبه الصدف على أذني لأستمتع بصوت البحر الذي ما ارتدته يومًا، والذي سيكون لاحقًا ذا ذكريات وعذابات جمَّ ستحفر في ذاكرتي أبدًا.

أستمتع بـ الصمت الصاخب...

هي عزلة طوعية، دون أن تكون صحيّة تمامًا لأني كنت أجد صعوبة في الاندماج بالمحيط أو الحفاظ على علاقات ودية أو مميّزة، على الأقل في هذه المرحلة من حياتي رغم ما ستؤول إليه الحال، نقيض ذلك تمامًا.

لم تحبني الفتيات في الجوار أو المدرسة، ومنهن من عاملنني بنبذٍ وتنمّرٍ لما يجدنه فيَّ مختلفًا عنهن؛ الشكل والاهتمامات وأسلوب اللعب والتعامل. وأنا لم أحبّ أيًا منهن تقريبًا.

يتقرّب منّي أحيانًا بعض الذكور، تزعجني كثيرًا محاولاتهم التغزّل بي أو التحرّش البريء، رغم ما كنت أُنعت به، بأنّ بنيتي الجسديّة تشبه بنية الذكور؛ ممتلئة الجسم ذات طولٍ جيد، أطول من الفتيات اللواتي في مثل سنّي. كنت ذات بشرة سمراء أشبه ببشرة من لونتها أشعة الشمس بعد صيف كامل على البحر، وعينين نجلاوين واسعتين استعارتا من عيون المها رسمهما ولونهما.

تروقني قصّة شعر الصِبية وملابسهم أكثر ممّا تروقني جديلة الشعر والفستان وربطة الشعر والألوان الزاهية..

كثيرًا ما كنت أجد شيئًا من نفسي في قريبتي الراعية 'نبال'، وآنس بوجودها. أذكر المرة الأولى التي ضمتني فيها إلى صدرها أخالها عناق أُمٍّ وأنا التي لم تخبر هذا العناق قط، أو

على أقلّ تقدير لا أذكره ولا أذكر رائحتها ولمساتها واحتواءها لي ولا خبرت حتى عناق الفتيات الصديقات.

عناق ولمس مريح ودافئ واحتواء أشعر به مع 'نبال'. عناق ولَّدَ عاطفةً وارتباطًا نفسيًا بنكهة خاصة، عناق قال أشياء كثيرة لا يمكن قولها بكلمات.

* 'نونو' أيّ عينين واسعتين تملكين، تشكّلان رسمًا مميّزًا يكتمل مع شفتيكِ الغليظتين وأنفك غير الدقيق. تقول لي 'نبال'.

'نونو' اسم الدلع الذي كانت تناديني به، هو اسم شائع في بعض الثقافات، وغالبًا ما يستخدم للإشارة إلى الطفل الصغير أو الشخص الذي يحمل صفات البراءة واللطافة.

ـ أجيبها: لا أحب هذا الإطراء. وبرغم ما تحمل كلمة نونو من معانٍ إيجابية وتعكس جوًا من الود والحنان ولكن لا أستسيغها ولا أحبها.

تضمّني إلى صدرها أشعر بلمسة لطيفة وقُبلة على الخد. تمسح على رأسي وشعري القصير بلونه الأسود الفاحم ذي التدرّجات من الخلف ومن الأمام.

كنت بحاجة ماسّة إلى هذا القرب والتفهم والمودّة التي أجدها ترفًا وسعادة. ولا أفشي سرًا: كنت أبحث عن هذا العناق في كل التقاء بيننا يخفف توترًا لا أدرك كنهه ووجوده،

ويشعرني بأمان أفتقده، ويحسن مزاجي، ويضع لبنة جديدة في جسر علاقتي بها.

كنت أزورها في منزلها، وأحيانا أرافقها والخراف إلى هضبة قريبة من البلدة.

تباغتني هي في مرات غير قليلة إلى طريق المدرسة تغمرني باهتمام وود وعناق...

أغوص في ذاكرتي وتحضرني إحدى المرات التي كنت في بيتها أسرِّح شعرها بعد أن أنهت استحمامها. كانت لا تزال مرتدية «روب» الحمام، تتالت أحاديث بيننا حتى ذكرتُ فتاةً تكبرني بسنة، مدحتها ومدحت جمالها وفرحي عندما تشكرتني وقبّلتني وقبلتها بعد أن دافعت عنها ووقفت في وجه صِبية حاولوا مضايقتها وهي تتجول برفقة كلب أليف ذي عواء خاص ارتبط بذهني لاحقًا بمتعة محببة. صارحتها بلذة انتابتني بتلك القبل. ثارت حينها فجأة... تكاد تقلب المكان رأسًا على عقب، ثورة غضب ورفض في البداية لتتحول إلى شيء آخر مختلف تمامًا.

النظرة واللمسة والقبلة حتى الكلمة، كلّه اختلف.

بدأت بتصرفات وأفعال كنت خبرتها معها من دون أن أدرك غاياتها، ما بين لطف وكلام وتصرفات أخرى تفاجئني، يداها عند شعري ووسطي وعند ركبتي وربما تكون أرغمتني على

أفعال كان ختامها شهقات تركت في ذهني وذاكرتي وشخصيتي الكثير الكثير وأثَّر فيما سأقدم عليه لاحقًا.

في ذلك اليوم بالذات، لملمت نفسي عائدة إلى البيت، وشتات مشاعري ما بين حزن حينًا وضحك حينًا آخر، يخرقه صمت يبلغ الروح ألمًا.

في طريق العودة، خفقان قلبي وضرباته تكاد تكون مسموعة تحاكي خبب حصان قد وصل إلى عَدو سريع.

أمرُّ بالقرب من حانوت الحي دون أن أسمع صوت صاحبه يناديني.

وصلت البيت، تعرّق يندّي جسدي الذي فيه رمض وقد اشتدَّ حرُّه. أمرّ مسرعة في حضرة والدي الذي يرمقني بنظرة خاطفة فيما كان جالسًا ممسكًا بهاتفه، غارقًا في عالم افتراضي وهمي مقيت، يكمل انعزاله مع «كاسة» «المتة» التي ما تخلّى عن عادته في شربها، وكذلك عن عادته في كيل الملاحظات والتوبيخ والطلبات كلّما رآني. وهو من يجب أن يكون لي السكن والسكينة.

كنت أشعر بحاجز غير مرئي يحول دون الحديث معه ومحاورته بشكل عام، فكيف بسرد شيء ممّا حدث بيني وبين 'نبال'، أضف إلى ذلك الخوف والشعور بالذنب العجيب، وأشياء أخرى تُحفر في الذاكرة مع تفاصيل لا تُنسى.

أمضيت الليل محاولة (عدّ الخراف) لأنام، فأجدها تعيدني إلى يقظتي وإلى 'نبال' حتى أُجهدت إجهادًا... واستبدلت عينيّ الكرى بتسهيدٍ يؤرقني.

هل حدث لي مكروه؟ هل آذتني؟ أو ربّما أنا من سأؤذي نفسي. إحساس بالقلق والتوتر يستوطنني، تعب وتشنج عضلي دون أن أبذل جهدًا حقيقيًا. ليتني أحصل على شيء من سجائر الحشيش التي يدخنها بعض الصبية وتشعرهم بالنشوة والنسيان.

أو ربّما أريد طعامًا أبتلعه بشراهة أو حتى لا أريد! لست جائعة بل أشعر بتخمة تختلط بخوى.

هل لي جريرة في ما حدث؟

أذكر أني بوجهي المصفر وجسدي المرتعش، دخلت وخرجت إلى الحمام ما يزيد عن العشر مرّات، وبدّلت ثيابي مرارًا أيضًا.

أعدت في ذهني تفاصيل ما حدث وكيف؟ ولماذا؟ من دون أن أعيه وأفهمه بوضوح، من دون أن أعي وأفهم أي إحساس أو شعور انتابني حينها، كل ذلك ظل يراودني طيلة ما تبقى من اليوم إلى ما بعد عودتي من المدرسة.

خلال الأسبوع التالي، ابتليت بمشاعر مختلطة بشكل سريع ومفاجئ ومتعاقب، حيث يغلب علي الشعور بالخوف والرعب والتوتر والعجز، فضلًا عن الشعور بالظلم وصولًا إلى رعشة

تشعرني بلذّة. أنّى سِرتُ تراودني رهبة وتوجس وشعور بعدم الأمان وصولًا إلى تعاظم عدم الثقة بالآخرين. أستشف في ذاتي آهات تؤرقني.

يعود لذاكرتي مجددًا، طريق العودة من المدرسة في اليوم التالي لتلك الحادثة حيث كان لا بدّ لي أن أمرّ بالقرب من تلك الهضبة حيث اعتادت «نبال» التواجد مع خرافها، دعتني إليها لأجد نفسي قد لبّيت دعوتها مباشرة تستقبلني بقبل وعناق صرت أدقّق في تفاصيلها. جلست بقربها أسرِّح ناظريَّ في المكان والطبيعة والحيوانات حتى وكأنني انفصلت عمّا يحيط بي، يلفتني الكلب الذي يرافق الخراف، أنظر وأراقب: بقربه كلب آخر، ظننت أنهما يلعبان، يقفز حوله ثم يثب عليه ويلف نفسه ليتلامس ظهرا الكلبين ويستمران ملتصقين مدة لا تقل عن خمسة عشر دقيقة، أسمع عواءً خاصًّا ما ألفته قبل، كما أشعر بنشوة أشبه ما تكون تكملة لما حدث معي بالأمس... أصحو من شرودي ونشوتي هذه على يد «نبال» تلامس أماكن طالما اعتبرتها محظورة وأنظر وإيّاها بشغف إلى التصاق الكلبين اللذين كانا يقينًا أنثى وذكر.

تتالت الأيام وبعض لقاءات بيننا، أصبت بعدها بشتات ذهني حتى صرت أتحاشاها، ثم ابتعدت نهائيًا عنها بعدما تكرّر ذلك بيننا بداية بما يشبه الإكراه ولاحقًا بما أصبح رغبة أشعر بحاجة لها.

قمت بتقمّص دورها فيما فعلَته معي. مارسته ولو بشكل بسيط سطحي، على أطفال يصغرنني سنًا ذكورًا وإناثًا، ربما لأتخلص من الشعور بالألم الذي يسببه لي الإحساس بكوني ضحية بطريقة ما. هذه الحيلة الدفاعية لم تؤدِّ إلّا إلى شعور آني بالرضا، وشعور أكبر وأدوم بالذنب والضياع. وبخاصّة أني وجدت ميلًا وراحة أكثر مع الأنثى.

4

كنّا قد تركنا، زوجي وأنا 'يم'، القرية في الغوطة منذ مدّة، وانتقلنا إلى العاصمة دمشق، لم تطل إقامتنا فيها كثيرًا لا سيّما بعد أن ازدادت وتيرة المظاهرات والاعتصامات وصولًا إلى العمل المسلّح وتقاتل الأفرقاء كافة، كلّ له مبرراته وأهدافه وأسلوبه.

الغوطة هي الكورة التي قَصَبتها دمشق، وهى كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، مؤنّقة الأزهار، ملتفّة الأغصان، خضرة الجنان. استدارتها ثمانية عشر ميلًا كلّها بساتين وقصور، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ومياها خارجة من تلك الجبال وتمتدّ في الغوطة عدّة أنهار وهي أنزه بقاع الأرض وأحسنها، وهي إحدى جنّات الدنيا. والغوطة عبارة عن غابة من الأشجار المثمرة بساتينها، كان القدماء يعدّونها من عجائب الدنيا[1]، وإن كان كلّ ذلك

(1) من كتاب عجائب البلدان لسراج الدين بن وردي.

سيؤول إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولكن بالاتّجاه المعاكس لما كانت عليه.

أذكر ذلك اليوم منذ سنوات خلت، كنت فيه أقود دراجتي على أحد الدروب في أطراف القرية، حيث البساتين من شتى أنواع أشجار الفاكهة، وبساط أخضر تمتدّ فيه كلّ أنواع الخضروات في الغوطة. بين أيكها وحياضها، كانت خيوط الفجر تحمل لي كما اعتدتُ أن أحمِّلها، أملًا بغدٍ وآت جديد. ومع تغلغل ضوء الشمس الذي يتسرب بين الأشجار، تتسلل إليَّ رغبة في مناجاة الطبيعة وتأمّلها، وتأمّل حيواناتها البرية أو ما ألف منها، وأنا التي ما ألفت نفسي حتى وددت الابتعاد عني.

وفي الدرب الذي اعتدت على طرقه، بين شجرات المشمش أقصد بُعدًا عن صخب «هدوء القرية» الذي لا يتناسب مع جلبة ما في داخلي وعجيج الصراعات التي تقض عيشي.

أمضيت جلَّ وقتي هناك وحيدة، بعد أن أنجزت إصلاح الدراجة التي تعرضت للارتطام عندما حاولت أن أقفز بها على منحدر.

وقتٌ ممتعٌ آخر قضيته في محاولة اصطياد بعض عصافير الدوري بـ» نقيفة» كنت قد صنعتها. وهي أشبه بمقلاع بسيط مصنوع من قبضة خشبية بشكل y يربط في طرفيها مطاطٌ ينتهي

بقطعةٍ مربّعةٍ من الجلد يوضع فيها قطعة حجرية صغيرة يتم إطلاقها بعد توتير المطاط وإعادة تركه.

في طريق عودتي من نزهتي خلوتي، أمرّ بالقرب من المقهى الذي طالما تمنيت ارتياده والجلوس فيه وممارسة ألعابه، من طاولة الزهر والداما وصولًا إلى ورق اللعب سواءً مع رهان أو من دونه. أمر لأروي عطشي بماء من عين تقع بجوار المقهى التي اعتاد كهول وشيوخ القرية ارتيادها. يجترُّون في أحاديثهم أمجاد شباب ولَّى ويروون بطولات لا شاهد على قيد الحياة يؤكّد حدوثها أو ينفيه، على مبدأ؛ من أراد الكذب أبعد شهوده.

توقّفت لأنهل ماءً بكلتا يدي، منه أروي ظمأ بدني من دون أن أجد ما يسكت لهبة روحي وذاتي التي أنشدها وأقتفي أثرها. «لدي الماء، لكن ليس لدي الروح».

لا يخلو المقهى من رجال أُخَر، كهولًا في نظري أيضًا وإن صَغُر سنهم، كيف لا وهم يكبرونني بأعوام كثيرة، وربّما أعمارهم تزيد عن ضعفَي عمري،. وأنا لم أكمل العشرين خريفًا. وسَامَتهم فيها رجولة غير خافية، وتصرّفاتهم تنمّ عن ثقة وحرية.

دغدَغَت سامعي كلمات شعرت أنها تخصّني وتتناولني، فأسترق السمع لحديث يدور بين اثنين أجهلهما كلاهما، فلم

يكن لي سابق عهد بحديث بيننا ولو كان عفويًا أو عابرًا. يقول أحدهما للآخر:

* أنظر إلى تلك الفتاة، ويقصدني أنا، أجدها غريبة الأطوار ولكن تدفعني رغبة لخطبتها حتى دون أن أعرف اسمها.

ـ يجيبه الآخر بلكنة حازمة أقرب ما تكون لمن تستهويه صناعة المتاعب والشجار:

إيّاك أن تقترب منها، إنها «يم»، هو اسمها. هي لي، ملكي أنا، وسأمتلكها قريبًا جدًا وبصك ملكية يشرِّعه والدها.

لم يكن قد تبادر إلى ذهني يومًا فكرة الزواج، ولا حتى أثار مخيّلتي رجل، من ناحية أنه استكمال لجنس المرأة، فيه تكتمل أنوثتها وذاتها. ولا كان ذلك حلم يراودني كأغلب من شعرت باستدارة ثديها وبلوغ أنوثتها.

على العكس من ذلك كان يلفتني الرجل كونه القوة والحرية والتسلط والرجولة، مصداقًا لما يحرك فيَّ مشاعر مبهمة مُلَغَزة.

ملكي أنا! أمتلكها! صك ملكية!

كلمات حفرت في ذاتي قبل أن تحفر في مسامعي ومخيلتي، فيبرز إلى ذاكرتي ذكرى فتاة كانت زميلة لي في إحدى سنوات دراستي، مُلِكت أو وُهِبت أو حتى بِيعت. كانت رهانًا خاسرًا قامر به والدها عندما استنفذ مالًا بدَّده القمار فما كان منه إلّا أن تكون ابنته هي الرهان.

لا أعلم إن كان شعر بهلع أو خيبة أو ندم، كونه في هذا الموقف لم يراهن ويخسر الرهان فقط، بل قامر بحياة من يجب أن تكون كريمته، راهن بحياتها ويقينا بحياته.

شهوة الربح تحكّمت به بشكل مفرط حتى أعمت بصيرته وعقله. عشقه وولهه للمقامرة والمتعة، متعة قضاء الوقت، ونشوة الربح والتفوق على خلانه. والد تلك الفتاة كان على استعداد أن يخاطر بابنته ليكسب، وهل من كسب أثمن منها؟!

لقد أضاعها... ثم تاه.

ربما كانت بداية عهده بالقمار في ألعاب ما بين التسلية والتحدي. بداية تلاها بألعاب قمار أخرى بدأت بربح ما، بمبلغ يعتدُّ به ربما، ممّا أثار ثقة في نفسه ونشوة. تكرر الربح والخسارات، وما بين نشوة الربح والأمل بتعويض الخسارة، وإدمان متعة مفترضة ووهم زائف، أصبح لقبه وعمله: المقامر.

هو المقامر لا لأجل غاية حقيقية ينشدها بل هو ذاك الداء الذي ينغل في فكر وسلوك من أدمنه من دون أن يراعي ضوابط اجتماعية أو أخلاقية، من دون أن يراعي حتى روابطه الأسرية وأن ابنته ليست أداة قمار بل ترياق حياة.

يتناوب صوت الرعد وصخب وغزارة الأمطار مع صوت اشتباكات وانفجارات وحديث زوجي، فيعيدانني إلى واقعي مجددًا. شكواه المتكررة من غياب الأمن والأمان وتردّي وضع البلد، وضيق أفق الحلول.

مجدّدًا صوت انفجارات وإطلاق نار وتجدد الاشتباكات بين أطراف النزاع في ثورة حق أريد بها ولها أن تكون باطلة، وأن تكون مخاض ولادة شرق جديد.

* أحدّث زوجي:

غاب الأمان الذي كنا نتمتع به، ولعلّ أهم نعم الله علينا هي الصحة والأمان وكلّ ما دون ذلك هو تفصيل يُتجاوز.

ما رأيك في أن نهاجر إلى أوروبا، نحذو حذو الكثيرين. نهرب من آلة الحرب التي تسحق الإنسانية قبل أن تقتل الجسد.

- قرار كهذا فيه من المغامرة والمقامرة بحياتنا الكثير. والأهم كيف لنا أن ننسلخ عن ذاتنا، فتراب مسقط رأسنا، وخلاننا وكل ذكرياتنا هي جزء لا يتجزأ من ذاتنا التي تكوننا.

* أُضيف: قد صار الوطن فندقًا وَجَبَ مغادرته عندما تسوء الخدمة فيه. وأرى أن لا بد من ذلك وفي القريب العاجل.

- تعلمين أني مطلوب أمنيًا، وهذا يصعِّب الهجرة، كما يجعل البقاء شبه مستحيل. كما تعلمين أني مطلوب لبعض فروع الأمن لمشاركتي ببعض المظاهرات المطالبة بإسقاط النظام. كما إن بعض الجماعات المسلحة كالجيش الحر تعتبرني قد خذلتها بسبب مكوثي سابقًا في القرية في الغوطة وعدم مشاركتي في

معارك ضد الجيش الوطني، وضد جبهة النصرة أيضًا بعد سيطرتها على المكان حيث فُهِم من ذلك موالاتي الضمنية للجبهة. وهذه الأخيرة لم ترضَ عني كذلك، وهي المتشددة دينيًا، وأنا غير الملتزم دينيًا والمعروف أني كنت في صفوف الأحزاب اليسارية والشيوعية.

* بالطبع أعلم كل ذلك، وأعلم أن قرارنا بالهجرة فيه رهان على حياتنا من دون شك. ناهيك عمّا لترك الوطن وما فيه من الذكريات وترك كل ما ألفناه واعتدنا عليه وراء ظهورنا، ولكنها الظروف القاسية، تفرض علينا ذلك.

ـ معك كلّ الحق، فقدنا السيطرة على الأوضاع وبات الشعور بالعجز تجاه كل الأحداث المروّعة التي نتعرّض لها خبزنا اليومي الذي حل محل الخبز القوت والغذاء. صرنا أمة «المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا، وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا». وفي مقابل كل هذا الألم هنا، ما أخشاه أيضًا في الهجرة العجز وعدم القدرة على الاندماج في البلد الجديد وبيئته الغريبة بعيدًا من الأهل والأصدقاء ومصادر الدعم المعتادة، أهرب من موطني فيتملّكني الحنين، أخشى من كلمة لاجئ، من التعرض للتمييز والنظرة الدونية في بعض الأحيان. هذا الصراع يسكنني ويقضّ مضجعي، يسكنني القلق وعدم

اليقين بتحقيق الأمان والاستقرار هنا، وأن الفرص المتاحة مستقبلًا في الوطن تتضاءل وتكاد تختفي. هل نصمد لمقاومة الظروف القاسية؟ والطرف الآخر في الصراع، أي مستقبل قد ينتظرنا وأي حياة؟

* أَختم أنا: فلنسلك طريق الهجرة، ولنراهن على أنّ الغد الآتي أفضل.

يعود إلى مخيّلتي أوّل عهدي ومعرفتي بالرهان... كان ذلك في لعبة فيها من خفّة الحركة وسرعتها في إخفاء كرة تحت إحدى أكواب ثلاثة. وشتان ما بين الرهانين.

كنت مرة برفقة والدي في المدينة وقلما ترافقنا سويًّا. مررنا على من يلعب هذه اللعبة فتوجهت إليه قائلة:

* دعني ألعب معهم، هذه اللعبة تبدو جميلة، فيها من دقّة الملاحظة والمجازفة الكثير، يجذبني ذلك.

أذكر حينها أنه أمسكني من يدي وشدّني كمن يشد رسن حيوان رفض الطاعة وقال:

ـ اسكتي وامشي.

بالكاد مشينا خطوات حتى وجدنا جماعة أخرى يلعبون اللعبة ذاتها، ولا شك في أنّ البعض ممّن يدّعي أنّه في هذا الجمع «صدفة»، هم أدوات استكمال هذه اللعبة الحيلة.

حينما شاهد والدي الكرة بأمّ عينه تحت إحدى الأكواب توقّف هنيهة وأشار للكوب وقال:

* هذا.

سمعنا صوتًا جهوريًا يقول: عليك أن تدفع قبل أن تتكلّم.

في هذه البرهة خسر الرهان امرؤ آخر يشاركهم اللعب، أضاع فرصة معرفة موضع الكرة، فسارع والدي إلى تحديد موقعها فعاجله مشرف اللعبة:

ـ عليك أن تدفع مبلغًا ماليًا سلفًا للمشاركة بالرهان.

دفع والدي بطيب خاطر ليقينه بالفوز وجاءت المفاجأة؛ خسارته. أعاد الرهان مجددًا وفي نيّته تعويض الخسارة التي مُنِي بها، ثم تكررت خسارته ولولا جلبة حصلت في المكان، وإصراري على التوقّف عن التمادي في خسارته إلى ما لا نهاية، لكان قد سلك «سباق الفئران» هذا؛ حال الفأر الذي يركض في عجلة داخل قفصه، ولا يتحرك من مكانه مهما بذل من الجهود.

وبالعودة إلى الزواج والرهان، كان زواجي وزوجي هذا، محصلة تحدٍّ ورهان، راهن الشابان في المقهى على خطبتي، وكنت جائزة ذاك الشاب وفوزه، جائزة بنكهة زوجة.

تجذبني وتغريني حريّة وتسلّط الرجل في خياراته وليس أقلّها اختيار زوج، وعدم وقوف عمره سواء زاد أو نقص كحاجز أو قيد في زواجه وفي اختيار العروس.

يتزوّج حتّى من دون أن يكون مؤهّلًا ومن دون أن يُلام على خياراته أو على طريقة معاملته لزوجه وإدارته لما يفترض أن

يكون مؤسّسة زوجيّة. لا مسؤوليّة مباشرة في تربية الأولاد وفي عمل المنزل ولا حتى التزام عاطفي تجاه أحد، هو الرجل السيّد الحرّ المستقلّ.

الرجل في مجتمعنا ليس مطالبًا بـ الإشباع الجسدي والنفسي والعاطفي للطرف الآخر، ربّما كلّ الأمر بالنسبة إليه هو إشباع رغبات ذاتية فقط.

يجد الرجل جميع المبررات المجتمعية له، وعندما تقع المرأة في مواقف مشابهة أو حتى أقل وطأة يلقى عليها كلّ اللوم، وتطبع بصفة التمرد والعار والاسترجال، والمسوغ فقط أنّها امرأة.

كم من الرجال يدرك قيمة المرأة وحاجتها للسكَن الروحي والاستقرار العاطفي وحسن الارتباط المجتمعي، وكون الأمومة امتيازًا وليس واجبًا؟

أليس «الزواج من امرأة بمثابة الاتصال مع سفيرة الجنس الآخر». فيشعر المرء بارتباط مع هذا الآخر، ويرتفع احترامه لهن وتقديره أيضًا، وهذا بالمحصلة يخلق نوعًا من التناغم والوعي وفهم احترام الآخر. ويخفف معدّل ارتكاب الجرائم النفسية أو المادية تجاه المرأة وكذلك الإهانات بين الطرفين وبحقّها بشكل خاص.

كان قد استمرّ زواجنا بشكل أو بآخر، وإن وجدت الخلافات الزوجية وهي شبه روتين لا غنى عنه في أي علاقة.

في فترة لاحقة عندما ازداد تواتر الخلافات، والتي لم يكن جوهرها ما يشيع بين الأزواج من عدم الحصول على الاهتمام أو المودّة بما فيه الكفاية، أو الغيرة والخيانة الزوجية. ربما جوهر الخلافات بيننا، كان التحدّي الخفيّ بمن يكون ربّان هذه السفينة وقائدها.

وبرز الجنس أيضًا واختلاف نظرتنا إليه؛ وليس بعيدًا من ذلك الكثير من الرواسب المجتمعية والعالقة في الذاكرة.

التحكم والسيطرة على الأمور في المنزل وفي مجمل حياتنا كان باب شقاق دائم، وكذلك رسم الخطط المستقبلية وإدارة الأمور المالية. هذا أيضًا كان سمة بارزة في مشاجراتنا. كنت أميل لأن أكون ذات شخصية مستقلة مسيطرة.

وفي جانب آخر، وبعيدًا من الشجار، كنت أجد متعة ولذّة في الطبخ وقد برعت في ذلك. لكني أمقت أعمال التنظيف والبقاء في البيت بانتظار قدوم «السيد» صاحب الأمر والنهي.

في زمن الشدّات، ولعلّ أشدّها الحرب، صار من اقتصرت مشاكله على الخلافات الزوجية يعيش في ترف يُحسد عليه في مقابل القتل ببرودة أعصاب، والخطف والفقر المدقع. وهكذا دُسنا الخلافات وتجاوزناها كما داستنا الحرب وأهلكتنا.

اتخذنا قرار الهجرة، ويتعيّن علينا أن نترك بيتنا في الصباح الباكر لموافاة أحدهم الذي تكفل بمساعدتنا وإيصالنا إلى آخر سوف يستكمل مسيرة رحلتنا باتجاه تركيا أوّلًا ثم إلى أوروبا.

خرجنا من الحي في العاصمة حيث كنّا نسكن، تركنا كلّ الماضي خلْفنا بكل ما فيه، القلب ينزف والعين تدمع، في كلّ ركن ذكريات جميلة علقت بروحي، وقصص ولحظات غالية، مشاعري تتصارع بين الحزن والأمل، بين الفراق والشوق. أخطو بخطوات ثقيلة والأمل سلاح يوحي بأنّ الغد الآتي أفضل، وأنّ ما مرّ معنا أو ما سيمر في الأيام القليلة القادمة، هو طَلْق ولادة جديدة.

في بداية درب الهجرة، تجاوزنا مناطق عدّة مرورًا بالعديد من الحواجز ونقاط التفتيش لأطراف الصراع المختلفة، حتى وصلنا إلى مدينة أخرى حيث اجتمعنا تباعًا بمن نَحَا نحونا، كلّ له أسبابه. درب فُرض علينا قسرًا بسبب كلّ ما حدث ويحدث لوطن يلفظ أبناءه كرهًا.

في المدينة التي وصلنا إليها، بقينا جميعنا داخل قبو لساعات عدّة. وما أدراك ما معنى أن يأوي المرء إلى قبو، يستبدل به بيته وسكنه وحتى وطنه. كنّا لا نزال في ساعات الصباح الأولى ويومنا الأول، وهي رحلة متوقّع أن تستمرّ لأسابيع. آلام وآهات عدّة، ظننّا أنّها أقصى ما يمكن أن نتعرّض له. يظهر بعضها على الجسد وما لا يظهر على الروح أكثر من ذلك بكثير. بعد عدّة حواجز عسكرية وتهديد محتّم بالموت عند أوّل خطأ أو ربما عندما تختارنا المصادفة من دون اقتراف أي خطأ أو ذنب.

حملنا الأمل والرغبة في هجران حرب قد تكون عبثية تديرها أطراف خارجية شتى من كلّ بقاع الأرض، يوقدونها بفلذات أكباد الوطن.

بعد أن تركنا القبو، وعبر سيارات مزوّدة بزجاج عاكس يحجب رؤية ما في داخلها، نكتظ داخلها، توجّهنا إلى منطقة تقع خارج المدينة. لكلّ منطقة نعبرها رجل يحميها، وذلك بحسب الجهة التي تسيطر عليها. كان بحوزة من يُقلّنا اسمٌ من الأسماء النافذة الكفيلة بإخراجنا من أي مأزق أو موت أو إعدام محتم.

هكذا اجتزنا عدّة مدن وعشرات الحواجز، هبط الظلام ثم انتصف الليل وانتهى يومنا الأوّل، وصلنا إلى ما يشبه منطقة مهجورة زراعية فيها بقايا بيت ريفي، كان مريحًا ومناسبًا مقارنة بما مررنا به خلال النهار.

لاحظت ما يشبه مشفى ميداني، هي أشبه بغرفة فيها بعض تجهيزات طبية قد تنقذ مصابًا بحاجة لإسعاف طبي.

كيف تستبدل المستشفيات المجهزة لينوب عنها ردهة؟ كيف يستبدل الأصيل بالوكيل؟ كيف تستهدف الصحة وهي أول مقومات البقاء.

بتنا ليلتنا الأولى هنا دون أن يلامسنا الكرى إلى ما قبل الصباح. من كان معنا من الرجال نام كيفما اتفق، آخرون ممّن معهم نساء، حرصوا على حماية نسائهم كلٌ على طريقته.

أخذنا زاوية أنا وزوجي، ينظر أحدنا للآخر، نكاد لا نتكلم إلّا لِمَاما دون أن يغمض لنا جفن إلّا غفوات تسرقنا لبرهة من الوقت.

في صباح اليوم التالي وافتنا سيارات تعلوها أعلام جبهة النصرة، بعضها مدنية وأخرى شبه عسكرية، ومنها ما هو مصفّح بطريقة يدوية، في منطقة هي أشبه بخطوط تماس فيها جيوب آمنة نسبيًّا. ينضم إلينا مجدّدًا أشخاص أُخَر، في كلّ محطة من محطات هذا الدرب، رجال ونساء وأطفال يشاركوننا المسير، جميعنا وجهتنا الأولى تركيا، ولاحقًا لكلّ وجهة هو موليها.

مررنا مجددًا بنقاط أمنية عديدة لنتجاوز بضعة كيلومترات فقط شعرنا خلالها أنها رحلة الألف ميل. دفعنا مبالغ مالية متتالية شكلت جواز عبور عند كل نقطة تفتيش أو ما يشبه حدود دولية في وطن واحد ليس لكلّ أبنائه. استقرّ بنا الحال أخيرًا في بضع سيارات مدنية حشر فيها ما يكفي عادة لملئ حافلات.

في المنطقة الفاصلة بين قوات الجيش والجماعات المسلحة تعرضنا إلى ما يشبه الكمين وإطلاق النار من دون أن نعرف حقًا مَن الجهة التي تستهدفنا، لحظات تطول وتمتد حتى لتشعر أنّها لن تنتهي، تكون في جفن الردى والردى غير نائم وكلّنا ضحايا كلمى مهزومون. نجت السيارات القليلة التي تقلّنا

بأعجوبة ولم ينجُ زوجي الذي يجلس إلى جانبي، فقد أصيب بطلق ناري قاتل أودى بحياته مع آخر كان يجلس بمحاذاته وكأنّهما كانا درعًا بشريًا وقاني من الموت المحتم.

خطفته تلك اللحظة المرعبة من جنبي، ما بين ذهولي وعجزي عن استيعاب ما حصل، وقلبي الذي يرفض فقده، أشعر بالعجز لعدم قدرتي على حمايته، وصدمة موته لا تزال تطاردني. والخوف يسكن أعماقي، وحاجتي للأمان لا سيّما في هذا الظرف تتملّكني ولكنني أحتاج للقوة للبقاء والاستمرار.

لم أشعر سابقًا في بداية زواجنا بالحبّ الذي يُكتب عنه قصائد أو تروى عنه قصص ومسلسلات. كان زوجًا وزواجًا حادثًا، ذهول لا يرقى لمنزلة قرار الزواج. كلّ ما في الأمر أعجبني فقط أنه رجل، ذَكَر لا من نظرة أنثوية، بل من منظور اجتماعي شرقي.

لم أفكر في كونه شريكًا أستكمل حياتي معه في إطار علاقة روحية وجنسية. ربما فقط هو جزء من ضغوط المجتمع وعاداته وتقاليده، وتجربة فُرِض عليَّ خوضها وتحمّست لاكتشافها. لم أفكّر فيما إذا كنت سأعيش سعيدة بعد الزواج أم لا. وبالتأكيد ما شغل بالي قط، ضرورة إسعاده أو إنجاب أطفال. ولا أخفي سرًا أنّي حينها خفت أن أغدو كمن يُحتضر بقيد الزواج، وتقتل كافة أحلامه وطموحاته. وبخاصّة أني كنت أميل لأن أكون المتسلطة لا الخاضعة، الخلّاقة لا المقلِّدة، يرهقني الروتين

واجترار أيّام نكرّرها من دون إثارة أو جديد أو مغامرة أو جنون.

الآن فقدت هذا الزوج، مات زوجي، احتضنت نفسي، فقد ترك موته هنا وفي هذه الطريقة في قلبي ألمًا جمًّا، كبتُّه في داخلي وخانتني دموعٌ جهدت أحبسها وتأبى إلّا أن تسيل علّها تلطِّف قلبي بحرارتها دون أن تُهدّئ خفقانه وهيجانه. لم أكن ممّن يصرخ ويولول لإفراغ ألم أو حزن أصابه، جلّ ما فعلته ربطت عصبة سوداء على رأسي.

لم أمتلك ثقافة الوقت سابقًا، تنظيمه أو الاهتمام به، كنت أحيا اللحظة على هواي أنشد شيئًا أفتقده وأجهل كنهه ولكن أبحث عنه علّي أجد نفسي أوّلًا قبل أن أنعم بترف إيجاده. الآن للوقت قيمة خاصّة فقد صرت وحيدة، وحياتي كلّها باتت مرهونة بالآتي القليل من الأيام. أمضي في طريقي المجهول، محاولة جاهدة إخفاء مشاعري تحت قناع الصمود، لكنّ عيوني تفضح أسراري وثقل العبء الذي أحمله وعلامات الإرهاق والتعب من صراع لا نهاية له. أتمنى أن أجد ملاذًا آمنًا أريح فيه رأسي، وأرتاح فيه من عناء التشرّد وغربة الشوارع هذه. أحلم بيوم أشعر فيه بالدفء والأمان مرّة أخرى، بعيدًا من الألم والمعاناة التي تعصر قلبي المثخن بالجراح.

استمرّت رحلتنا هذه بين المدن والفصائل المتقاتلة مدّة يوم آخر حتى وصلنا إلى ريف حلب ثم إلى إدلب شمال سوريا الخاضعة لسيطرة الجماعات المسلّحة.

نزلنا فيما يشبه بقايا مدرسةٍ يبدو أنّها تعرضت للقصف أو لاشتباكات مسلّحة عنيفة، هناك أمضينا ليلتنا الثانية مع مجموعة المهاجرين كاملة بعد أن اجتمعنا تباعًا ومن أماكن شتى. قد أصبحتُ فعليًا وحيدة بعد موت زوجي الذي رُمِي والقتيل الآخر من السيارة من دون أي اعتبار لحرمة ميت، بذريعة أنّ الحي أبقى وأنّ أيّ تأخير أو تعديل لمسار الرحلة سيحيلنا إلى أموات.

في أنقاض المدرسة المهدمة بفعل الحرب الوحشية، تكمن مشاعر مؤلمة تفتّت القلوب وتصدع النفوس. هناك، في ظلام الليل، نبيت ويبيت الأطفال المشرّدون معنا، وكلّنا مشردون. لا بيوت تؤوينا ولا أسِرَّة تحتضننا، ولا ذكريات للمكان تدفئنا.

نجلس جميعنا على أرضيّة باردة، يحيط بنا ركام الحجارة والأنقاض، كالطيور المجروحة التي فقدت أعشاشها. عيون الكثيرين بيننا مترقرقة بالدموع، أمّا الأطفال تتجلّى في وجوههم براءة طفولة سُلبت وأحلام كُسرت، ومستقبل مجهول يلّوح في الأفق. ربّما يتذكّرون، كما الكبار، بيوتهم الآمنة وألعابهم المفقودة، وضحكات أمّهاتهم الدافئة، فتنهمر الدموع على خدودهم البريئة.

تلتفّ كلّ مجموعة منّا حول بعضها البعض، متشاركين الدفء المتبقي من أجسادنا المنهكة، محاولين إيجاد بعض الراحة، بعيدًا من زئير القنابل وأصوات الرصاص المرعبة.

في تلك الليلة الباردة والمظلمة، كنّا نحلم بعالم يسوده السلام، عالم لا ترنّ فيه أبواق الحرب، ولا تُدمَّر فيه المدارس التي كانت يومًا ملاذًا للتعلم واللعب. ولا ينسف التعليم الذي هو أساس تطور ورقيّ المجتمعات.

نتمنى لو كانت الحياة أكثر لطفًا، وأقلّ قسوة.

في صباح اليوم التالي، نستيقظ من جديد على واقع مرير، واقع يتطلّب منّا أن نكون أقوياء، لنواجه عالمًا لا يرحم الضعفاء.

ولكن تبقى شرارة الأمل موقدة.

جرى تقسيمنا مجدّدًا وقد ازداد أعداد المهاجرين الّذين وافونا هناك. ركبنا طيلة ساعات خمس بدأناها منذ ما قبل الفجر، في حافلة صغيرة مزوّدة بزجاج مظلّل إلى أن وصلنا إلى مجمع الحافلات. هناك يمكن للمرء أن يستقل حافلة أخرى إلى داخل تركيا.

في مناطق سيطرة الجماعات الإسلامية، اضطُرت النساء لارتداء النقاب، وبطبيعة الحال لكلّ امرأة رجل من محارمها، يفترض أن يحميها ولما كنت بلا محرم أو زوج تبرّع أحدهم بأن يكون لي ذلك على الأقل ظاهريًا. كان اسمه 'سامي' كان غريب الأطوار أحيانًا، ذا بنية غير ضخمة، عريض الوركين خلافًا لكتفيه، بحّة صوته مميزة، ذا شارب خفيف، ووجه

وملامح ناعمة حتى لأظنّ أن بشرته ألطف وأنقى من بشرتي. ذا أخلاق دمثة وهمّة عالية ورجولة بائنة.

ركبنا الحافلة باتّجاه قرية قريبة من مقاطعة هاتاي التركية، مررنا مجددًا بنقاط تفتيش، لاحظت أنّ بعض العناصر المتواجدين فيها كانوا أجانب وبالكاد يتحدّثون العربية، فيمّا تحدث آخرون مع الشباب الذين يحاولون مغادرة سوريا، ورغّبوهم بالجهاد منوّهين بأنّه من الخطأ مغادرة البلاد من دون تلبية نداء أمناء الله على أرضه حسب زعمهم، اقتنع بعض الشباب بكلام كهذا، وعادوا أدراجهم من حيث أتوا للمشاركة بما يعتقدون أنه جهاد في سبيل الله.

تسيطر حركة أحرار الشام على آخر نقطة تفتيش على الطريق المؤدّي إلى تلك القرية حيث مكثنا فيها إلى ما بعد غروب شمس يومنا الثالث، ومن ثَمّ تم اقتيادنا إلى قمّة تلّة قريبة، ثم وجدنا أنفسنا بجوار طريق معبد يسير عليه حرس الحدود الأتراك بشكل دوريات مراقبة عليه.

ألقى حرس الحدود الأتراك القبض علينا قبل أن نتمكّن من دخول الأراضي التركية حيث كان بإمكانهم تجاوز الحدود الدولية إلى الداخل السوري من دون رقيب أو عتيد يمنعهم، وضعونا بادئ الأمر في خيمة كبيرة برفقة آخرين ممن قُبض عليهم وأبعدونا إلى الداخل السوري مجدّدًا، بعيدًا من

الأراضي التركية بعد أن فرضوا علينا تعهّدًا بعدم العودة إلى تركيا من جديد وألزمونا بالتوقيع على تعهّد خطّي بذلك.

سرنا على الأقدام مجددًا نحو تركيا ثمّ بمساعدة بعض المهرّبين وصلنا إلى محطة للحافلات داخل الأراضي التركية لا رقابة مشدّدة عليها وهذا ما مكننا من الانتقال عبرها إلى مدينة أنطاكيا التركية ومنها إلى إزمير.

وفي كلّ محطّة أو معبر أو نقطة تفتيش، ومع كلّ مهرب جديد، كان لا بدّ من التعرض للكثير من الإهانات والاضطهاد النفسي والجسدي والابتزاز المادي. وكثيرًا ما تعرض البعض منّا للضرب المبرح.

وثّقت الكثير من الأحداث والمواقف بصور التقطها عبر الهاتف، وقد كان لي باع في ذلك، وهواية حاولت تطويرها، أحاول استبدال قبح وألم الموقف بجمال الصورة.

آه، كم هي مؤلمة تلك المشاعر التي تعتصر القلوب وتجعل النفوس ترتعش رعبًا! ذلك الخوف الدفين الذي يتغلغل في الأعماق، والقلق المرير الذي يلفّ النفس كلفائف العنكبوت الحريرية، ويخنقها ببطء. تلك هي حال المهاجر اللاجئ، المنبوذ، الهارب من جحيم الحروب إلى مجهول مخاطر الطريق. يسير خلسة في ظلمات الليالي، حذرًا من أن تكشفه عين ساهرة، متلفتًا خائفًا في كلّ اتّجاه، قلبه ينبض بقوّة كأنّه سينفجر من صدره. أي صوت أو حركة أو همس يزلزل أركانه

ويجعله يرتعد ارتعادًا. لا هو آمن ولا هو مطمئن، المخاطر تحيط به من كلّ جانب.

وفي خضمّ تلك المعاناة، يتذكّر وطنه وأهله الذين خلّفهم وراءه، فيشعر بحنين يجتاح روحه. يتذكر بيته الدافئ ومدينته الآمنة، ويغرق في بحر الأشواق والذكريات الجميلة. كم يتمنى لو كان بإمكانه البقاء هناك، لكن الحرب المدمرة جعلت منه لاجئًا يبحث عن ملاذ آمن لنفسه ولعائلته. يواصل مشواره الشاق، ملتمسًا رحمة الله وحمايته، آملًا أن تنفرج تلك الغمة قريبًا، وأن يجد بصيص أمل في نهاية المطاف، بعد كل هذا العناء والخوف والاشتياق.

في أزمير لجأنا إلى إحدى الحدائق، بقينا فيها أيّامًا عدّة، نتزوّد فيها ونرتاح من عناء أيّام خلت طُوردنا وطُردنا فيها من كلّ أطراف النزاع. أقمنا في الحديقة نأكل وننام لِمامًا ريثما ننطلق عبر البحر إلى اليونان. كنّا مجموعة من نساء ورجال وأطفال من مناطق مختلفة وانتماءات مختلفة.

أراقب الناس في الحديقة، ألتقط بعض الصور لهم، وأرسم شخصيات وأحلامًا في خيالي وحتى ماضٍ خلى... أتوقعه، ويمر ماضيّ بكثير من تفاصيله.

أناس كثر، لكلٍّ قصّة ومعاناة؛ طفلة منغولية بدينة نوعًا ما، اسمها 'مرح' في عينيها الصغيرتين المتباعدتين كلام كثير، شكل رأسها وأنفها وأذنيها المميّز، ملامح صغيرة الحجم وهي

من سمات هذا الاضطراب الخلقي. محبّة للحياة، حنون للغاية، لا تميل للعنف بتاتًا عكس الكثير من بني البشر الذين نسميهم أسوياء. هي طفلة مرحة، ولكلٍّ من اسمه نصيب. اجتماعية رغم ما تحتاج إليه من رعاية خاصّة، تغمرها بها والدتها التي لا تبخل عليها بشيء.

في صورة معاكسة لهذه تمامًا، ذاك الضخم العابس دائمًا، الذي ينتهز أي فرصة ولحظة ضعف عند الموجودين لاستغلالها والاستفادة منها أو لكسب شيء من المال. يبيع هذا سيجارة بسعر مرتفع، يعرض حماية زائفة مأجورة على آخر. يُحضر حاجيات وممنوعات للبعض، له نصيب مادّي من كل ما يقدمه.

'سلمى'، فتاة أخرى ضخمة البنية قليلًا، تكاد تكون عضلاتها بارزة بعض الشيء بمقابل نهديها الصغيرين، ذات فك عريض، وشامة مشعرة على خدّها الأيسر، في صوتها بحّة ممزوجة بدلع، تتجمّل بمساحيق تجميل تظهرها بشكل لافت من دون أن تكون جذابة فعلًا رغم ما فيها من غنج في الكلام والمشي. ثيابها الرثة المتسخة كحال ثيابنا تتواطأ ضدها لتخفي ما قد يظهر فيها من أنوثة. عرفنا أنها كانت مدرِّسة في ثانوية، لديها بعض الخبرة التمريضية التي اكتسبتها بعد رعايتها الطويلة لوالدها الذي أمضى أشهرًا في المستشفيات، وسنة ونيف مُقعدًا في البيت طريح الفراش. لم تبخل قط بالرعاية والاهتمام لمن احتاج عونًا. تتطوّع وتبادر من دون انتظار السؤال، قد

ساعدت امرأة حاملًا تشاركنا درب الجلجلة خاصّتنا، تقدّم لها دعمًا عاطفيًّا ومساعدة في قضاء بعض ما تحتاجه. تظهر عاطفة واضحة تجاه من يحتاجها.

قد كانت والطفلة مرح، بلسمًا لنا بحضورهما وتصرفاتهما.

في أزمير، بحثنا عن مهرّبين، وليس من الصعوبة بمكان التعرف عليهم والوصول إليهم أو على الأقل الوصول إلى وسطاء، بعد أن صارت تجارة تهريب البشر اللاأخلاقية، تجارة رائجة. كنّا على اتصال دائم مع أحدهم، سعيًا منّا للوصول إلى اليونان أو أيّ من جزرها.

موعد الانطلاق كان يتغير دائمًا، لأسباب أمنية وأحيانًا بسبب الطقس وأحيانًا أخرى لعدم استكمال العدد حيث يسعى المهربون لحشد أكبر عدد ممكن من الراغبين باللجوء في زوارق مطاطية صغيرة لا تتسع عادة لأكثر من ثمانية ركاب، وفي ذلك مضاعفة أرباحهم من دون أدنى اعتبار لسلامة الركاب أو إلى ماذا سيؤول إبحارهم.

على أحد الركاب قيادة القارب بعد فترة تدريب قد لا تتجاوز الدقائق العشرة. النصيحة الأساس التي أعطاه إياها الوسيط أن يوجّه القارب باتّجاه الضوء القادم من الجزيرة المقابلة، ولا يفكر بالتوقف تحت أي ظرف أو سبب مهما عَظُم، وفعلًا هذا ما قام به حرفيًا.

وبالتأكيد لا بدّ من دفع المال دائمًا وعند كل خطوة. اتفقنا على أن يُدفع المال لطرف ثالث يحتفظ بالمبلغ حتى تتم العملية، ولم يكن بمقدور المهرب ولا طالب اللجوء أمثالنا، الوصول إلى المبلغ لمدّة أسبوع كامل. يُسلّم المبلغ إلى المهرب في حال تمت الرحلة بسلام، أو يُردّ إلى أصحابه إذا لم تنجح الرحلة ونجا صاحبه من الموت الذي يتربص به في كل وقت أو مناورة ومحاولة هجرة. كان الطرف الثالث عبارة عن مكتب لتبديل العملة يأخذ مبلغ خمسين يورو مقابل الاحتفاظ بالمبلغ.

كنت قد وضعت كل ما أملكه في كيس من البلاستيك، وشددته حول خصري منذ انطلقنا من بيتنا، وضعت فيه كل ما استطعت ادّخاره من مال وذهب.

وفي الوقت الموعود، حُشرنا في القارب المطاطي كما في علب السردين، كنا كتلة بشرية أكثر من كوننا مجموعة أشخاص. في خضم الرحلة وقبل وصولنا إلى اليابسة، بر الأمان لنا وعلامة النجاح في هذا الامتحان الذي ربما يكلف حياة. امتلأ القارب بالماء بسبب الحمولة الزائدة، حاولنا جميعنا تفريغه ما استطعنا دون جدوى، إلى أن صرنا مهددين ومعرّضين للغرق.

شعور عميق بالخوف والرهبة والتوتر نتيجة التفكير في النهاية الحتمية. رهبة وعدم يقين تجاه ما قد يحدث يقطعها ذاك

الرجل الضخم، الذي يشاركنا رحلة العبور هذه، نظر إلى الطفلة المنغولية البدينة ولسان حاله يقول: أنا أحقّ بالحياة منك، دفعها خارج القارب بقسوة، شهقت والدتها ورمت بنفسها خلفها من دون تردد محاولةً إنقاذها دون فائدة. وسط ذهول من تبقى في القارب، حنق شديد تجاه ذاك الضخم، وأسى وألم تجاه عائلة غرقت، وعجز كل من تبقى عن فعل أي شيء، وأنانية وتعلق بالحياة رغم بشاعة ما حصل.

غرقتا معًا وكانتا قربان نجاة من تبقّى في القارب.

وبالفعل وصلنا إلى الساحل اليوناني، لا نعلم إن كنا نستطع أن نغفر لأنفسنا، ولذلك الضخم جُرمَه، أو يجب أن نشكره كونه أنقذ الجميع بفعلته النكراء.

أمضينا أيامًا ستة في مركز لإيواء اللاجئين في اليونان. لتكون الوجهة الجديدة صربيا، عبر جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة.

كنا نسير حينًا ونجلس تحت الأشجار حينًا آخر بانتظار حلول الظلام كي نستطيع المضي قدمًا بغفلة عن الشرطة وحرس الحدود. وفي حين يقدّم لنا ظلّ الليل الفرصة لمواصلة رحلتنا، يخفينا عن عيون قوى الأمن، يقدّم الظلّ نفسه فرصة للعصابات للانقضاض على فرائسها خاصة ما ضَعُف منها. تعرضنا لسطوٍ من عصابات كهذه عاثوا فسادًا بيننا وسرقوا ونكّلوا، واستضعَفوا.

غالبًا ما يُستهدف اللاجئون والمهاجرون كونهم نظريًا يحملون زادهم من المال، ولا يحصلون على الحماية من الشرطة إلّا نادرًا. كنا فعلًا نخشاهم، وكانوا فعلًا يتسببون بهلع باعتداءاتهم هذه.

بقينا ضمن مجموعات كبيرة نعبر الحدود في جماعات إلى صربيا عبر مقدونيا، كنا نسير على خطوط السكك الحديدية، وكنا مجددًا نتعرض لهجمات من عصابات تحاول سرقتنا، وكنا نشتبك معهم ونحاول الدفاع عن أنفسنا في ظل درجات حرارة منخفضة لا سيّما ليلًا. وبعد ثلاثة أيام قضيناها مشيا على الأقدام أملًا في الوصول إلى صربيا، ألقت الشرطة القبض علينا بالقرب من الحدود الصربية، وتمت إعادتنا مرة أخرى إلى اليونان. كنا في غاية التعب، بقينا في اليونان لمدة يومين للراحة، آخرون مصابون نالوا قسطًا من العلاج. ثم كررنا المحاولة مرة أخرى. وفي تلك المرة تمكنا من اجتياز الحدود إلى صربيا عبر مقدونيا بعد أربعة أيام سيرًا على الأقدام.

من صربيا حاولنا اجتياز الحدود إلى المجر وكانت الحدود مجهزة بكاميرات حرارية تساعد الشرطة على اكتشاف من يحاول المرور، ومع تكرار المحاولات، تمكنا من اجتياز الحدود والوصول إلى المجر.

أذكر المرأة الحامل التي التقينا بها في أزمير كانت ترافقنا حتى الآن، في الطريق أصيبت بمتاعب وبدأت بالصراخ،

فخاف من كان معنا وهربوا منها لتواجه ضعفها ومصيرها. وكأن الضعف والخذلان جزء لا يتجزأ من كينونة المرأة ومصيرها. لم أستطع أنا ترك هذه المرأة وحيدة في هذا الظرف، فمكثت معها وشاركني 'سامي' بشهامته و'سلمى' بحنانها، لم يبخلا عليها برعاية أو اهتمام، 'سامي' نزيه وذو أخلاق، وقدرة على تحمل المسؤولية، وكفاءة في اتخاذ القرارات وتنفيذها. لم تغب عنا مواقفه الرجولية المسؤولة الحكيمة. وسلمى تفيض حبًا وحنانًا وأنوثة بغض النظر عن شكلها.

في المجر، للأسف حدث ما خشيناه، قد أبلغ الأهالي الشرطة عن وجودنا وتخفينا، فألقت القبض علينا، وضعنا في مخيمات بدائية حيث لا احترام للإنسان فيها، هذا إن كانوا يرون فينا من ينطبق عليهم وصف إنسان، وإلا ما عوملنا تلك المعاملة غير اللائقة. شاركنا عدّة من أناس أُخَر هذه المخيمات وهذا الدرب، بعضهم ذوو بشرة داكنة جدًا، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بأناس من السودان، يتميزون بأخلاق دمثة، ويتمتعون بمستوى راقٍ جدًا من الأخلاق. ناهيك عن وسامة رجالهم وقوة بنيتهم الجسدية.

من أصعب اللحظات في حياتي كانت عندما تعرضت للضرب من جانب الشرطة المجرية. شعرت بالإهانة ولم أتمكن من الرد أو الدفاع عن نفسي، ولا تمكن 'سامي' من الدفاع

عنا. رفعت صوتي بتمتمات وسباب، أهز رأسي حينًا وحينًا آخر أنظر بحدّة وحنق عندما اشتد غيظي. أنظر إلى الأرض بثبات وأسحب عيني عن النظر إلى الآخرين علّها تسحبني من المكان والحدث. ما أقسى لحظات العجز التي تأسرك وترميك في سجن الخذلان واليأس حتى تكاد تألف الظلم ويسيطر عليك الإحباط والضيق والتوتر وحتى انخفاض الثقة بالنفس.

كانت المعاملة سيئة للغاية، طلبوا منّا التوقيع على طلب اللجوء في المجر وعندما أخبرناهم أننا لا نرغب في ذلك ووجهتنا الأساس هي ألمانيا. رفضوا وأصروا على أن نوقع، رفضتُ فقام شرطي هزيل بلكمي عدة مرات على وجهي لكي أوافق وعندما يئس من موافقتي استدعى شرطيين آخرين، قاموا بالإمساك بأصبعي ووضع بصمتي رغما عني. وكأنها لا تكفيهم الذكورة بل امتلكوا السلطة والبطش أيضًا. وآخرون أيضًا لحق بهم ما لحق بي. شاهدت بعضهم يعنّفون لفظيًا وجسديًا، وصولًا لآباء يهددون بأخذ أطفالهم منهم وإرسالهم إلى «السوسيال» الذي لم نكن قد سمعنا عنه بعد.

قرّرت عدم التوقف ومحاولة التوجه إلى ألمانيا مهما كان الثمن.

أشار إليّ ذاك الضخم، وكان قد رافقنا كل ذاك الطريق أيضًا، أن أرتدي زيًا وملابس رجالية مدعيًا أن ذلك يعطيني قوة على الأقل شكلية، ويبعد عني طائفة من المعتدين إذ يكفي أن

أظهر قليل من القوة والرجولة لإبعاد هؤلاء الجبناء. راق لي ما قاله، وبالفعل تلك اللحظة، التي خلعت فيها لباسي واستبدلته وذاتي بلباس آخر مختلف تمامًا، خلقت نقطة تحول حقيقية عندي، شعرت وكأني أبدو على طبيعتي، ما كدت أرتدي زيًا رجاليًا مع قبعة أخفيت فيها شعري غير الطويل، حتى شعرت بثقة عالية بالنفس، وصدر رحب أتنفس فيه حياة وطاقة افتقدتها. وحتى راودني في محطات عدة، من دون أن أفعل، أن أشتري شاربًا مستعارًا يزيدني تألّقًا ووسامة واعتزازًا بذاتي.

بقي علينا المرحلة الأخيرة من رحلة الهجرة هذه وهي أن نستقل قطارًا يحملنا خارج المجر باتجاه ألمانيا أو أقله النمسا. علمنا بوجود تفتيش شديد على القطارات المغادرة من مدينة «بودابست» عاصمة المجر.

كنت قد اتخذتُ ومجموعة من المهاجرين رفاق طريق، 'سامي' و'سلمى' صديقاي لا نفترق ما استطعنا، قررنا الاتفاق مع سائق سيارة أجرة على أن يقلنا إلى ميونخ مقابل مبلغ مادي ليس بالقليل. بالقرب من الحدود النمساوية الألمانية طلب منا السائق النزول فرفضنا، فأخرج سلاحًا وأجبرنا على النزول. كان بيننا وبين الحدود الألمانية قرابة خمسين كيلومترًا فقررنا اجتيازها مشيًا على الأقدام حتى الوصول إلى ألمانيا.

نمشي وقد أثقلتنا الآلام والمآسي، وظلم ذوو القرابة وأبناء جلدتنا من الإنسانية. تلسعنا الطبيعة بقسوتها لتفتك بنا حيث كسل البشر.

أثوابنا صارت رثة ممزقة تستر جسدًا وتكشف عري روحنا ونفوسنا. أبداننا قذرة متسخة عجزت دموع مآقينا عن غسل ما فيها.

ملامح حزن وألم وبؤس تشهد على كمّ الأسى والأنين والآهات والوجع الذي مرّ علينا فزاد مرارنا.

حتى صرنا كبقايا قارب تقاذفته الأمواج وأغرقت جُلّه حتى فقد مساره وطريقه.

لم أجد الطريق يومًا، بل كنت من أصنعه... ألمانيا الهدف الأمنية والحلم، والمستقبل الذي حلمت أن يكون مشرقًا.

خلال أسابيع أربعة أو ما يزيد من رحلتنا الملحمية، مررنا بسبعة حدود دولية، وقطعنا ما يزيد بكثير عن الألف ميل التي بدأناها بثورة حق أريد بها باطل.

سيارات، زوارق، قطارات، أتوبيسات وبالتأكيد سير على الأقدام لمسافات ماراتونية.

واجهنا أناسًا من أبناء جلدتنا، كثيرًا ما عاملونا كأعداء أو كحشرات لا تمت للإنسانية بصلة. مهربين، قوات حدودية...

ومياه بحر... تكالبت الدنيا ومن فيها علينا.

أقلب مئات الصور التي التقطتها بكاميرا الهاتف خلال هذه الرحلة، كان آخرها صور المناطق الحدودية بين النمسا وألمانيا، وكأنها تتميز بتنوع طبيعي مذهل، حيث تشمل مناطق جبلية وأودية وأنهارًا وبحيرات ومسطحات خضراء. مناظر

طبيعية جميلة مثل جبال الألب وغابات الصنوبر والمروج الخضراء. تلك المناطق ستكون مكانًا ممتعًا وتوفر فرصًا رائعة للمشي لمسافات طويلة وركوب الدراجات والمتعة.

اجتزنا الحدود بين البلدين، كمن ينتقل من بستان إلى آخر محاذٍ له في الغوطة، في مقابل ذلك، انتقالي من مدينة إلى أخرى أو حتى من حي سكني إلى آخر في وطني هو أشبه برحلة فضاء، وأخطر من تجاوز قطيع ذئاب.

أخيرًا أشرقت شمس ألمانيا علينا ظنًّا منّا أنّنا فعلًا نجونا.

5

في قلب مدينة برلين المفعم بالحياة يتوسط فندق «اكسل برلين ـ للكبار فقط» في منطقة شونبيرغ، مكان حيث التنوع فيه يأخذ صدارة الاهتمام. المزيج الساحر والأنيق بين اللون الذهبي والأسود الطاغي، والطبقات والأنسجة، فيه لمسة من الفن تزيّنه. يستقبل الضيوف بابتسامات ودّية في جوّ دافئ ينعكس تفهّمًا عميقًا لاحتياجات روّاده.

وفي الاستقبال، لوحة كبيرة تغطي الجدار للفنان الكولومبي «فرناندو بوتيرو»، لوحة السلام، التي تصوّر مجموعة من الناس من مختلف الأعراق والأديان والأزياء والتعابير يحتضنون بعضهم البعض في مشهد من الحب والوئام. وعلى مكتب طاولة عامل الاستقبال حُفر التالي بالألمانية بأحرف مميزة وكأن فن الخط العربي ترك أثرًا فيمن خطها.

(نفتخر بأن نكون جزءًا من مجتمع يتميز بالتسامح والاحترام المتبادل.)

يتفانى الفريق في خلق تجربة فريدة للضيوف، حيث يكونون حريصين على توفير بيئة آمنة وودّية. في هذا الفندق، يرحّب بكافة الأفراد بفخر وفرح.

عادة ما يدخل «يام» الفندق يمشي الخيلاء متفاخرًا، رغم أنه لم يكمل شهرًا واحدًا فقط منذ بدء عمله ككبير الطهاة والمشرف المباشر على المطاعم فيه التي تقدم تشكيلة لا تُضاهى من الأطباق العالمية والمشروبات المبتكرة.

كان قد حصل على هذا العمل بديلًا عن الطاهي السابق الذي ما فتئ يُظهر حقدًا واضحًا تجاهه ولا يوفر فرصة لإعداد مكيدة أو إيقاعه بورطة.

'يام' أو جيمس، والاسمان يخصّانه ولكن أغلب الناس تعرفه بـ«جيمس» الطاهي الناجح والمميّز في تحضير الأطباق، والذي يمتلك قدرة على إدارة الوقت وتنظيمه بشكل فعّال، كما في تنظيم المطبخ وأدواته وتوليف مكونات الطعام، فقد خضع لساعات تدريب مكثّفة، إضافة لموهبته المميزة، وتقف خلفه جمعية تواظب على دعمه وتأهيله ومدّه بكلّ ما يحتاج إليه ماديًا ومعنويًا. كل ذلك في سبيل استمرار تفوّقه وضمان سلاسة عملية الطهي ونجاحها.

نشأ ذوّاقًا لما يأكله، مهتمًا بالنظافة، كما أنّه ذو حنكة وسرعة بديهة وقدرة على التعلم، وحشرية في معرفة الثقافات الغذائية، وبخاصّة بعد تجواله، وإن كان قسريًا وصعبًا ومتعبًا، في العديد من البلدان.

في مقابل ذلك كان يفتقد بشكل كبير للمرونة والعمل الجماعي رغم ما لذلك من أهمية. هو ذو شخصية صلبة

متسلطة، متعجرفة إلى قاسية في الكثير من المواقف. وذو تفاعل اجتماعي غليظ تطغى عليه النرجسية والقسوة.

يدخل المطبخ عالي الصدر غير مفتول العضلات، بالكاد وصل؛ حتى علا صوته وهو ذو لحن خاص أشبه بمن هو في سن البلوغ، خاطب عاملة النظافة:

* لماذا لم ترمِ المهملات بعد أن استكملتِ أعمال التنظيف؟

ويتوجه إلى مساعدته: ما هذه الأطباق وماذا حضَّرتِ؟ ارمها جميعها في المهملات، من غير المسموح البدء بأي عمل من دون تعليماتي. أنا من يتخذ القرارات بشكل مستقل من دون مشاركة الآخرين.

الجميع يعلم مهاراتي. من المكونات والتوابل المتوفرة وإن نزرت أستطيع تحقيق النكهات المميزة وإعداد وتقديم وجبات لذيذة وعالية الجودة، متميزة ومتوازنة.

ـ يجيب مساعده «zwak»: كنت أرغب بمساعدتك، وبخاصّة أني أتقن صنع هذه الأطباق. أقترح عليك إلقاء نظرة فقط.

يتجاهله ويتجاوز كلامه ونظرات آخرين في المطبخ، من دون أن يعيره أدنى اهتمام.

يطأطئ «زواك» رأسه مذعنًا، من دون أن يكلف «يام» نفسه أي اعتذار إليه. يكمل إصدار الأوامر والتوجيهات بدلًا من التعاون والاستشارة.

ويكاد لا يخفي اتجاهه للاستخفاف بالآخرين أو التعبير عن احتقار تجاه وجهات نظرهم.

يهمس آخر في أذن «زواك»: هو، ويقصد يام، طاهٍ محترف وذو مهارة فنية وقدرة على الإبداع والابتكار. يستفيد من حاسّة الذوق لديه ليبدع. ولكنه مضطرب يقينًا، رأيته يمسك كلبة صغيرة برقبتها حتى يكاد يقتلها، لمجرد أن التقت بكلب آخر وأصدرا نباحًا وإن بدا صوت النباح غير مألوف. أذكر تلك الحادثة، وأذكر أنّ صاحب الكلب هدّده بالقتل حينها.

ينظر «زواك» إليه بشرود: لدي أنا أيضًا الكثير من الأسباب لقتله.

كثيرًا ما تكررت سلوكيات مشابهة، مما خلق له كارهين كثر، إن لم نقل أعداء.

يبدو ذا شخصية قوية، يتسم بالتحكم والتوجيه في العديد من الأمور. ورغبة قوية في السيطرة على الأمور، وإظهار تفوقه الذي يفاخر به. يظهر سطوة وثقة زائدة في ذاته، على الأقل ظاهرًا ممّا يجعله يبدي انطباعًا بالتفوق على الآخرين. يفتقد إلى التواضع وحتى الاحترام أحيانًا في تعامله مع الآخرين. يعتبر نفسه فوق القوانين والتقاليد، لا سيّما بعد الدعم الذي يتلقاه من صديقته أو لنقل ملهمته وجناحه الذي يحلق به ويده التي يبطش بها 'فردفالد'. ممّا يؤدي إلى تشكيل صورة عنه كشخصية متعجرفة.

كان يتردد إلى الطابق العلوي للفندق والتراس، حيث المنتجع الصحي الذي يغمره بجو من الاسترخاء والتجديد، الجاكوزي، في أعلى ركن، مكان شبه مكشوف للخارج يفتقد لجدران تحتويه، ينوب عنها سياج حديدي بزخرفة فنية.

الصالة الرياضية كان قد دأب على ارتيادها وأداء تمارين قاسية متتالية، يقف أمام المرآة يستعرض ما نما من عضلاته، يمارس استعراضًا ذاتيًا يبحث عن علامات الرضا الذاتي، يعرج أحيانًا على مركز التدليك بمحاذاة الصالة أيضًا، وتراس التشمُّس. وكذلك غرفة البخار التركية التي كان يتجنبها وعندما يضطر للمرور من قربها يرتسم على ملامحه تجهّمًا يظهر أثره على شكل لكمة لجدارها الخشبي.

إضافة لهذا الامتياز الذي يتمتع به، كان لديه منحة الاسترخاء في إحدى غرف الفندق، ذات التصميم الأنيق الخاص، تدخل الغرفة عبر ممر صغير يمينه مرآة ويساره جدار زجاجي للحمام، ينتهي الممر بمساحة تحتوي، إضافة لتفاصيل أنيقة فخمة، سريرًا مزدوجًا. كان يسترخي فيه 'يام' ويمسك بهاتفه، يلتقط صورًا عدة لنفسه ينظر إليها بتمعّن ويدقّق في تفاصيلها، يوجّه كاميرته للمرآة المقابلة للسرير يختار الزاوية الصحيحة، والإضاءة المناسبة، فيظهر مكان الاستحمام عبر الجدار الزجاجي المواجه للمرآة.

تصميم غايته إقامة استثنائية، وخلق جوّ من الحميمية والرفاهية.

عندما يخلد إلى نفسه في ملاذه هنا، كان يعلم أن مشاعره الحقيقية تختلف. وأنّ ردوده أو استجاباته سطحية من دون عمق أو صدق. وأنه يخفي مشاعره الحقيقية ويحتفظ بمعلومات وأسرار تغيّر سلوكه، رغم معرفته أنه قد عُلِم جلّها. وأنه يركن إلى التشويش أو التحايل لتحويل الانتباه عن الأمور الحقيقية وظروفه محاولًا حماية نفسه أو تجنب المواقف الصعبة.

نجح مهنيًا في هذا الفندق ذي الخصوصية، وأظهر شخصية متسلطة متعجرفة يستند بذلك إلى صديقته 'فردفالد' وجمعيتها وهما ذواتا نفوذ، وإن أخفى ضعفًا وعقدًا وأسرارًا، ليس أقلها 'نونو' التي تقض مضجعه. هي الصفحة البيضاء التي شوهتها قطرة زيت تسببت بإحراقها.

6

بعد الذي حدث بيني وبين 'نبال' . . .

أصبت بعدها بتشتت ذهني، صداع يعكّر صفوتي إن وجدت، صعوبة في التركيز ممّا أضعف قدراتي الدراسية وربما العقلية حتى. أشعر بألم في عضلاتي وتعرق زائد، وصداع ما خبرته من قبل. أدلّك يدي كلّما ساد صمت ليعكره تنفسي العميق المسموع.

نفسيًا آثار لازمتني واستوطنتني وقتًا غير يسير، شعور بالصدمة وعدم الاستقرار، وصولًا للشعور بالذنب، أحمِّل نفسي سبب ما حصل وكأني قمت بتصرف ما أو كلام ما حرض فيها ما دفعها لتفعل فعلها بي، أو ربما تقصير منّي أحدث ذلك؛ هل كنت أنا السبب في ما حصل؟ أو ربما كان لثيابي الفاضحة دور سلبي.

كثيرًا ما كنت أستيقظ في الأيام التي تلت ذلك اليوم، خائفة يتملكني الهلع فجأة، وكم من مرة تكرر ذلك!

كل ذلك أضاف إلى عزلتي عزلة يعتريها ميل للعدوانية والعنف.

والأسوأ من ذلك كلّه ما اختلط عليّ بشكل جليّ طبيعة ميولي وحقيقة مشاعري ورغباتي في طبيعة الشريك وجنسه.

ما فعلته معي 'نبال' يقينا هو تحرّش واعتداء جنسي. العجيب في مواقف التحرش أنها تُحفر في الذاكرة وتترك تفاصيل لا تُنسى.

كيف لمتحرش، ومن أجل غرائز حيوانية قذرة، أن يقضي على نفسية شخص طوال حياته، من دون أن يشعر بارتباك أو يشعر بخزي.

قد يكون الاعتداء الجنسي له علاقة بالمتعة الجنسية، ولكن كثير من الأشخاص ممّن يقومون بهذا التصرف، يدفعهم للتحرش رغبة في الشعور بالسيطرة والهيمنة على أشخاص أضعف. وسواء التحرش بالأطفال أو الكبار، لا علاقة حقيقية وثابتة بلباس الضحية الذي يُظن بأنه قد يكون دافعًا، ومن هنا جاءت فكرة أحد المعارض الذي أقيم في بروكسل عاصمة بلجيكا، حيث جمع ملابس ضحايا التحرش الجنسي التي كانت ترتديها الناجيات من الاعتداء الجنسي بغية تغيير تلك الثقافة السائدة حول علاقة الملابس بالتحرش.

وفي مقابل ذلك كلّه، أين أبي من ذلك؟

أين الاحتواء والأمان والسند؟

هل حقًا إن الآباء هم دائمًا مثاليون! هم للحب والتضحية والإيثار عنوان؟

هل الآباء دائمًا على حق وقادرون دومًا على تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق والحقيقة.

هل كل الآباء جيدون؟ يحبون أبناءهم ويؤدون واجباتهم الأبوية كما يجب؟

كم من أب أساء لأولاده جسديًا ونفسيًا؛ أولها السلوك العدواني اللفظي والجسدي كالضرب الذي قد يكون مبرحًا أو سواه من العقوبات الجسدية بحجة التأديب. وإن صح ذلك حينًا وخاب أحيانًا. كم من أب أساء نفسيًا لأولاده، من خلال الإهمال العاطفي والسخرية وتسخيف الشعور أو الإحراج أمام أترابه.

كم من أب أساء لأولاده روحيًا؛ كإجبارهم على تبني أفكاره ومعتقداته التي قد لا تكون سوية.

أو أساء حتى جنسيًا بطرق شتى...

الأب المتسلط، غير القدوة أو من يخالف فعله مواعظه، وصولًا لعدم التوازن في تقديم الحب والتوجيه، والمبالغة في العقاب لفظًا أو فعلًا.

من يصادر حرية الابن وأقله حرية التفكير والقرار. هذا كله وليد عدم فهم لاحتياجات الطفل.

لا بد من التواصل الحثيث مع الأولاد، تخفيف أو إزالة التوتر والضغط الزائد، عدم التجاهل أو الإهمال، التمتع بالمرونة إلى أبعد الحدود، وكذلك التشجيع والإيجابية.

كم من الآباء فشلوا في توفير بيئة آمنة وداعمة للتطور بل على العكس بالغوا في الانتقاد الدائم السلبي من دون تقديم التشجيع!

كم أنتج آباء غير كفوئين عقدًا واضطرابات ولا أمان يقضّ مضاجع من يجب أن يكونوا فلذات أكبادهم!

كم زرع آباء في أولادهم، إحساسًا بالدونية والعار، أو حتى الضياع، أو تشويهًا لفهم الطفولة أو صورة الأم أو الأب وصولًا إلى تشويه العلاقة الزوجية والأسرية وبالتالي تشويه بناء الإنسان!

لا بد من إعطاء الوقت الكافي للطفل ومشاركته نشاطاته وصقله وبنائه ليكون ذاته ونفسه التي يحب ويسعى أن يكونها.

لا بد من تقبل أخطائه، والسعادة لنجاحه، ودعمه حتى عند عدم وصوله إلى النتيجة المبتغاة من دون أن يُسمى ذلك فشلًا أو أن يوسم بالفاشل. لا بد للأبوين أن يكونا النموذج والمثال الذي يحتذى به لا الواعظ باللسان.

قد يكون تأثير الأب مصدرًا للضغوط النفسية والصراعات الداخلية، التي تكاد تحول الابن إلى حشرة بلا قيمة من دون سابق إنذار، لا يساعده أهله لتجاوز محنته، إلى أن يهملوه ويطردوه وصولًا إلى موته من دون الشعور بتأنيب الضمير. وبذلك يكون رمزًا للعزلة، والغربة، والتبعية الاجتماعية،

وتعبيرًا للظروف الاجتماعية المعقدة. هكذا يمكن أن يفسد الأب حياة ابنه وهو الذي يملك إكسيرها[1].

(1) فكرة رواية المسخ لـ كافكا، وتأثير والده السلبي عليه.

7

بعد أسابيع وأيام خلت، أشرقت علينا شمس ألمانيا وقلّما تشرق، فهي لا تكاد تظهر دفئها حتى يغيب.

يملؤنا الأمل أنها ستكون فاتحة وبداية مرحلة مشرقة، راهنّا عليها بكل ما نملك وليس أقلها أرواحنا. وصلنا إلى ألمانيا الهدف والمبتغى والحلم، وفي مخيلتنا أننا وردنا إلى الفردوس والنعيم.

لم تكن الأيام الأولى تُسكت توقًا للراحة أنشدناه. فقد ارتطمنا بالتشرد مجددًا، هو كذلك بكل ما للكلمة من معنى، وبخاصّة أن جميع اللاجئين كانوا قد أنفقوا كلّ ما ادخروا من مال في طريق الهجرة. لا مأوى ولا طعام يُذكر لأيام سبع شداد قضيناها ننتظر على بوابات مراكز الإيواء للحصول على «رقم» يخوّلنا البدء بإجراءات اللجوء. على بوابات المراكز هذه، يقف العشرات وأحيانًا المئات من الأشخاص من بقاعٍ شتى من العالم المسمى ثالث، العالم الذي يشكّل الفساد فيه الرحم الذي يولّد جهلًا وظلمًا اجتماعيًا وتخلّفًا، العالم الذي يطبق فيه القانون على الضعيف فقط، ويفصَّل على قياس

المستبد النافذ. العالم الذي كثيرًا ما يخذل فيه القانون صاحب حق في وجه صاحب نفوذ. عندما لا يتساوى الناس في الثواب والعقاب على العمل المتماثل، فهذا قانون لا يعول عليه، وبالتالي لا أمل أو سبيل للرقي والتقدم.

العشرات وأحيانًا المئات فرّوا من حرب عسكرية أو من شبح الفقر أو الجهل، وآخرون ينشدون حرية قد تكون مزعومة، حرموا منها في بلدهم الأم. لاجئون يجهدون لإخفاء ضَياع يسكنهم، يلبسون ثوب التعب والإرهاق الذي يجانس ثيابهم الرثة المتسخة ليكتمل مشهد آهاتٍ وآلام هجرة عنوانها «طريق الموت».

في هذا اللازمان واللامكان، الماضي مُرّ وقد مرّ، يخفي ندبًا وتقرحات في الروح، تظهر آثارها يقينًا على الوعي والسلوك وحتى الكلام.

يخضع اللاجئون لتقييم من قبل السلطات المعنية لتحديد وضعهم القانوني واحتياجاتهم. يُطلب من المُتقدم إلى اللجوء حضور مقابلة شخصية وذلك لشرح حقيقة هروبه والمطالبة باللجوء.

وفي أثناء تعبئة بعض الأوراق التعريفية؛ أذكر سؤالًا جاء صادمًا بالنسبة إلي حينها عن هويتي الجنسية، وبخاصّة أني كنت حينها بملابس ذكورية.

* هل تشعر أن هويتك الجنسية الداخلية لا تتناسب مع ما وسموك به عند الولادة؟

ـ لم أتوقع سؤالًا كهذا، أجبت: أنا أنثى ولدت كذلك وعشت كذلك من دون مشاكل كبيرة.

أنظر بشرود إلى زاوية السقف، تمر أحداث معينة حفرت في ذاكرتي ثم أكمل: تعجبني سلطة الرجل وقوته ونفوذه.

* لهذا الحديث تكملة ومتابعة لاحقًا، سنساعدك.

أولويتي كانت الاستقرار، أولى علامات الانفراج كانت الحصول على مهبط وسادة في مركز إيواء. وهذا يعني الالتزام بتأمين إقامة قانونية لمدة ثلاث سنوات، تسمح لنا بالتجول والتعلم والطبابة وبعض الإعانات المادية. هي مراكز إيواء تؤوي المتشردين، يمكن الخروج منها والدخول إليها بحرية تقريبًا. ولكنها تستبيح الخصوصية كما استباحة المسلَّمات والمعتقدات. وفي محطات ما تعمل على إعادة بناء الأدمغة والايديولوجيات بما يخدم فكرة الاندماج بالمجتمع.

في مراكز الإيواء تخلع ثوب المتشرد وتلبس ثوب اللاجئ: مأوى ومأكل وملبس وحد أدنى لا بأس به من الخدمات ومقوّمات حياة الإنسان التي يفتقدها جل من تلفظهم أوطانهم وترمي بهم هنا لأسباب شتى. يمكث المرء هنا عادةً بين عدة أشهر إلى عامين حتى يستطيع بعد ذلك الانتقال إلى سكن خاص بعد أن يكون قد حصّل شيئًا من اللغة، وألِف أفكارًا

وتصرفات ومشاهد اجتماعية تعيد تكوين وتشييد ثقافته ورؤيته المختلفة للحياة.

يبدأ النهار بتناول الفطور، وهذا ما قد يعتبر طبيعيًا ومألوفًا ويكمن فيه بداية إعادة قولبة اللاجئ، بداية من أصناف الطعام المتوفرة وليس أقلها الخنزير مثلًا والاختلاط بلا قيود لدرجة استباحة الخصوصية، ودمج ما كان يعرف بمهام أنثوية أو ذكرية لتصير مهام متماثلة.

يلي ذلك دروس تعلم اللغة وهذا يستغرق الجزء الأكبر من النهار. برامج الاندماج بالمجتمع أيضًا حاضرة، وبالتأكيد الحصة الأكبر ينالها الأطفال وهم الشريحة التي يُراهن ويُبنى عليها، هي الهدف والغاية.

كما لا يخلو النهار من بعض نشاطات ورياضات بدنية والقليل من الترفيه.

عشنا تجربة الهجرة غير الشرعية وبهذه الطريقة لجأنا إلى بلد غريب عنّا بكلّ تفاصيله وعاداته وأفكاره وحتى ناسه، بمن فيهم أبناء جلدتنا بعد أن طبعتهم هذه البيئة بطبعتها. اللجوء قد سكننا، هو حدث مؤلم ألمّ بنا وصدمة اعترتنا، ابتداء من ارتحالنا عن الأهل والأتراب، وإن كانت الحرب هي من لفظت أبناء الوطن وأخرجت شِرار قومه لتصبح اليد الطولى لهم. ربما تكون آلام الهجرة والطريق المتعب الطويل وصولًا إلى ألمانيا قد انتهت. زالت آثاره الجسدية والبدنية، استبدلنا

الملابس الرثة بأخرى أكثر أناقة وإشراقًا. بشرة الوجه والكفين الخشنة المليئة بلدغات الحشرات قد تبدل حالها بأخرى أكثر مدنية. ونلنا من الراحة قسطًا وافرًا وغذاءً هنيئًا مريئًا وإن لم يطب لنا كله.

ولكن بقي رفيقنا القلق، الاكتئاب، والتوتر، وكذلك الخوف. لازمنا كل ذلك طويلًا، نوبات الهلع اللاارادية التي تصيبنا عندما نشاهد جنودًا أو أصواتًا حربية، أو كل ما يذكرنا بالبحر أو بما مر معنا في طريق ذات الشوكة.

تغييرات كبيرة ظهرت في حياتنا، الانسلاخ عن بيئتنا الطبيعية، التي طالما شكونا منها في الحرب وما قبلها حتى. وهذا ما يجعلنا نقف لحظة تأمل في حال إنساننا؛ دائمًا ما يراكم سلبيات وهموم بلده الأم ليستبدلها بالحنين عندما يهجره وتلدغه الغربة.

الغربة بلباس اللجوء، خلقت لنا تحديًا جديدًا أساسه الاندماج في المثوى الجديد، وضرورة إقامة صداقات، وخلق بيئة ننتمي إليها وجمهور نسكن إليه وفيه، وإن احتاج هذا لصبرٍ ووقت مديد.

كنا نسعى للانضمام إلى أنشطة نهتم بها أو نسعى للاكتراث بها ومتابعتها وممارستها، ومن خلالها ننفتح على التواصل مع الآخرين. وهذا ما دفعنا لحضور فعاليات اجتماعية عدة. وسائل التواصل الاجتماعي غنية بالترويج لنشاطات كهذه، وفتح آفاق التعرف على أشخاص جدد.

كنا على موعد مع إحداها: مسيرة واحتفالات الثامن والعشرين من حزيران، بغض النظر عن فهمنا وإدراكنا لِكُنهها وغاياتها، أو حتى انسجامها مع ثوابتنا ومسلّماتنا وثقافتنا.

بعد كل ما مر معي من مواقف وتجارب وآلام وآمال، تعلمت أن أكون من الأشخاص الإيجابيين الذين يحاولون أن يجدوا خيرًا أو جمالًا وألفة في كل حال. وحاولت أن أكون أكثر اختلاطًا بالناس، أسعى لكسب معارف وصداقات، وأنهل من أي مصدر للمعرفة.

'سامي' كان حاضرًا بقربي دائمًا منذ أن كان رفيق طريق في أيام هجرتي الأولى، قد تقاربنا وتآلفت روحانا برغم شكله وسلوكه الغريب أحيانًا. وكان قد أسرَّ لي الكثير.

بنيتُ علاقة مع 'فردفالد'، وكانت أولى أصدقائي من غير اللاجئين، كانت مشرفة تتردد بشكل دوري على مراكز الإيواء، أستمع لكل ما تقول وأبدي اهتمامًا، مما ساهم في بناء روابط قوية معها. ولا أبيح سرًا أني كنت أسعى من خلالها لتحصيل امتيازات وخدمات ومآرب، وهذا ما ترسخ في شخصية وتكوين «ابن بيئتنا»، البحث عن «واسطة» أو ذوي نفوذ من أجل الاستفادة من حق ليس له، أو أن يعفي نفسه من واجب عليه. لعلمي بارتباطها بتنظيم تنتسب إليه، هو من التنظيمات المدعومة وذات النفوذ. وقد سوَّقَت له على أنه يعمل على تحقيق المساواة والحقوق في المجتمع وتقديم الدعم

الاجتماعي والنفسي، والتثقيف من خلال فعاليات وندوات، أضف إلى ذلك الدعم الطبي والقانوني لمن يحتاج.

كنت قد بدأت في اكتشاف معالم هذه المدينة التاريخية. يستهويني التجول على ضفاف نهر «سبري» مشيًا على الأقدام، أو بركوب الدراجة، أو حتى عبر الجولات النهرية في قارب يقوم بجولة داخل المدينة في رحلة ممتعة لا تقدر بثمن، أستمتع بالمناظر الطبيعية التي يمر بها. أما الجولات المسائية فلها نكهة أخرى، وتعتبر مختلفة تمامًا عن الجولات الصباحية.

كنا قد اتفقنا 'سامي' وأنا على تمضية بعض الوقت مساء على ضفاف النهر اذ تضفي الأضواء المتلألئة في المساء، سواء أنوار المباني أو الجسور، نكهة خاصة ولمسة سحرية تدخلنا أتون القصص الأسطورية الساحرة.

جلسنا على مقعد قبالة جزيرة المتاحف، وهي عبارة عن جزيرة صغيرة في النهر تضم خمسة متاحف تشكل تحفة معمارية مثيرة للإعجاب حيث تتوحد الفنون والعلوم بشكل فريد في مكان واحد يمكن الوصول إليه بسهولة ومتعة؛ هنا حيث المتحف القديم والحديث، والمعرض الوطني للتراث ومتحفان آخران.

كنت و'سامي' نتجول على ضفاف النهر حينًا ونجلس حينًا آخر، أحضرت معي حافظ الحرارة «ترمس» مملوءًا بالقهوة العربية مع الهال، نرتشف القهوة ونراقب المارة، نصنع قصصًا

لهم ونقارنها ونقارن شخوصها بأخرى كانت في بلادنا. نرسم أحداثًا ثم نغيرها، ما بين الفكاهة حينًا، والحسرة حينًا آخر على أوطان فشلت في الريادة رغم غناها بكل مقومات النهوض والرقي.

يمر بالقرب منا أشخاص عدة، هي مدينة قلما تجد فيها أطفالًا، على العكس تمتلئ بالكثير من العجائز والمسنين. هذا رجل مسن يمسك يد امرأة من عمره يتبادلان حديثًا خافتًا وابتسامات، يتناوبان أحيانًا على عكازة واحدة. وفي البعيد بعض الأفراد يهرولون وفي آذانهم سماعات.

وفتاتان تمسك إحداهما يد الأخرى تكاد تعانقها، وعلى خصرها نطاق بألوان قوس القزح.

توجهت إلى 'سامي':

* أنظر إلى الفتاتين، أقول وابتسامة على وجهي، ونبرة صوتي مرحة إلى ساخرة، قد تكونا «لسبيان Lesbian»، كثيرون المتحابون من نفس الجنس في هذا البلد، وأُكمل ضاحكة: ولا أظن ذلك بريئًا دائمًا ويختلف تفاعل المجتمع مع هذا المفهوم.

ـ لا يخفى عليك ثقافة كهذه ستكون هدامة مهما يُروج لتقبلها. تعرفين أصل التسمية lesbian؟ تعود إلى جزيرة لسبوس، مسقط رأس الشاعرة اليونانية سافو، رُوِج لممارستها «السحاق» مع النساء اليونانيات في القرن

السادس قبل الميلاد وربما لم يثبت ذلك. كانت فنانة فائقة الجمال قد صنعت الكثير من القصائد الغنائية التي طبعت شخصيتها. قد نذرت نفسها للحب، تعلّمه أفضل مما تستمتع به، وتغني له بأفضل ممّا تعيشه. ظلت سيرة سافو حاضرة جيلًا بعد جيل، حكاية المعلمة التي تلهم تلميذاتها، ترشدهن إلى حياتهن المستقبلية، وتعلّمهن الشعر والموسيقى، مثلما تعلمهن الحب. على أي حال، هذه أصل التسمية ولكن تبقى هذه الشريحة شاذّة وفي عزلة اجتماعية، وغير مقبولة عائليًا رغم كل ما يبذل لتسويق وتشريع نهج كهذا حتى في بلاد كهذه. ناهيك عن التأثير السلبي الشخصي على الصحة النفسية والجسدية.

* أقول أنا: تقف موقفًا سلبيًا بسرعة، قد يكون ذلك خيارهن، حريتهن التي ينشدنها، أو محاولتهن اكتشاف ذواتهن الضائعة.

ـ تقف حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين وحقوقهم، في هذه الحرية المزعومة سبيل هدم أهم ركائز البشرية وهي العائلة، وحصرية ثنائية الجنس في الأنثى والذكر فقط. قد تكون أي علاقة داخل الأبواب المغلقة لا علاقة لأحد بها، أو قد يمكن تجاوزها، ولكن الخروج بهذه العلاقة إلى العلن والتسويق لها وتشريعها

وابتداع قوانين على مقاسها ومقاس من يقف خلفها، ذلك بحث آخر. هذا لا دخل له بحرية الانسان بالتعبير عن جنسه وحقوقه المدنية، بل هي أجندة واضحة شريرة وفاسدة لتقربنا من مرحلة «ما بعد الإنسان» لجعلنا نتساءل عن أهم شيء في هوية الإنسان، وهو جنسنا البشري. هل سمعت ببحث ونظرية «ما بعد الإنسان».

* أتوجه إلى سامي مجددًا:

ربما تخبرني لاحقًا عن ذلك، أو أستعين أنا بـ«غوغل» أو الذكاء الاصطناعي. ربما هذا جزء من «ما بعد الإنسان الذي تقصده؟.

في سياق آخر وربما قريب؛ أجد أنّك ذو بنية ناعمة لا تملك عضلات الرجال، حتى عضلات صدرك البارزة قليلًا هي أشبه بثديي ناهد لم تكمل بلوغها.

ـ إن لذلك قصة قد أخبرك بها.

* يقينًا ستخبرني والآن، أجد ثقة متبادلة بيننا.

ـ قلت سأخبرك، في وقت ما.

* ملامحك الحادة في الأنف والفك وبروز تفاحة آدم يعطيك جمالًا، في بحّة صوتك رجولة، أفعالك التي تنم عن شهامتك لم تغب خلال رحلة الهجرة. لا أقصد في ما قلته لك عن بنيتك الجسدية إظهار عيبًا

يعيبك بالرغم من اقتران الرجولة في ذهني ببنية الرجل الضخمة والعضلات المفتولة، واللحية الكثيفة مع الشنب. والآن أخبرني، أيّ سر تخفي؟ إني لبوحك صاغية.

ـ هو سر احتفظت به عمّن لا يعرفني، وإن ذاع صيته قليلًا حيث ولدت وحييت سنيَّ الأولى.

ولدت ولديَّ اختلاط في الأعضاء التناسلية، بمعنى أنها غير واضحة وغير مكتملة النمو، وبغياب العضو الذكري الصريح ظنّ الأهل أني أنثى، وعوملت طوال طفولتي على هذا النحو حتى وصلت لسن البلوغ، وعندها بدأت هرمونات الذكورة بالعمل، ظهر لي شارب، وتغيُّر طفيف في شكل الأعضاء التناسلية ليصبح أشبه بعضو ذكري صغير، حينها اكتشفوا بأن الفتاة التي قضت طفولتها هكذا لم تكن فتاة بل ذكرًا، الذي هو أنا. تم تأكيد ذلك من خلال فحص للكروموسومات، وهو الذي يعطي تشخيصًا دقيقًا قاطعًا بوجود كروموسوم الذكورة، وغيابه في حالة الأنثى.

في حالتي هذه، هناك اتفاقٌ علمي وديني وأخلاقي بأن عملية تغيير الجنس لا بد منها. إحساسي بكوني ذكرًا ظل يعيش داخل ملابس الفتيات التي كنت أرتديها فوق عضو تناسلي مقلوب، في ظاهره أنثوي وفي باطنه ذكوري.

* تعني ما تقول؟ حقًا قضيت طفولتك كفتاة وبلغت كذكر وتعيش اليوم فكر وسلوك الرجال؟

سمعت فيما مضى بما يشبه قصتك، تقرير من محطة ب ب س البريطانية، من دون أن أصدقه.

عن قرية تتحول بها الإناث إلى ذكور فور بلوغهن العام الثاني عشر من عمرهن أي سن البلوغ، من دون تدخل طبي. توقف إنتاج هرمون الذكورة «التستوستيرون»، في الرحم، مما يؤدي إلى ظهور الأولاد كإناث عند ولادتهم. ولكن عندما يبدأ ارتفاع الهرمون عند البلوغ، تتغير أصواتهم وتنمو أعضاؤهم الذكورية بشكل طفيف وهو التطور الذي يفترض أن يحدث في الرحم، ولكنه يحدث لهؤلاء الأطفال بعد اثني عشر عامًا.

وأضاف التقرير شهادة أحدهم قائلًا: أتذكر أنني اعتدت ارتداء ثوبًا أحمر صغيرًا، وقد ولدت في المنزل بدلًا من المستشفى، ولم يعرفوا ما نوع جنسي. وعندما ذهبت إلى المدرسة اعتدت ارتداء تنورتي، ولكن عندما أحضروا لي ألعاب الفتيات لم تعجبني وكل ما أردت القيام به هو اللعب مع الأولاد[1].

يضيف 'سامي': إن ارتداء ملابس الجنس الآخر أو اللعب معهم ليس علامة اضطراب الهوية الجنسية ولا سببًا للتحول

(1) المصدر؛ جريدة الأنباء الكويتية السبت 12/8/2017.

الجنسي رغم ما يسوّق له في وقتنا الراهن. بالتأكيد سمعتِ عن أول عائلة متحوّلة جنسيًا في بريطانيا، يقول والد الطفلة، وهو متحوّل جنسي: يمكننا مساعدة طفلتي في أن تعيش سعيدة بشأن هويتها، نحن لا نشجعها ولكن نشتري لها ملابس الأولاد والبنات لنمنحها الاختيار بأي شكل تريد استكمال حياتها ولدينا محادثات منتظمة معها، ومن المؤكد أننا سنعمل ما ترغب به[1].

وفي جانب آخر وبعيد من ذلك، هناك أسباب كثيرة جدًا لمحاولات التحول الجنسي؛ اقتصادية واجتماعية ونفسية وجنسية تصبّ في هذا المجال، خبرت وسمعت بعضها في العاصمة في بلدي، بعض الأمهات يحاولن تغيير جنس الطفلة الأنثى إلى ذكر كي تمنع الميراث عن إخوة الزوج المتوفى. وآخرون من أجل التهرب من التجنيد.

أشعر أنّ هذه الأمور والمعلومات تمسّني وتمسّ ذكريات ما فتِئت تلازمني وكثيرًا ما قرأت وتابعت دراسات علمية حول هذا الموضوع. بعد صعوبات اجتماعية عدة أصبحت في مواجهة معها، منها التحديات التي تتعلق بالتقبل الاجتماعي ليس أقلها لقب «المرأة التي اصبحت رجلًا»، نعت وسمة وعار أُرمى به.

(1) المصدر، المصري اليوم، الأحد 2019/01/13.

وكذلك التمييز في العمل والصداقات. وإحدى أهم الصعوبات هي القانونية الإدارية، الاستحصال على وثائق رسمية وإصلاح شهادة الميلاد ووثائق الجامعة وغيره.

قلّة الفهم والجهل المجتمعي يزيدان الصعوبات ويزيد الحاجة للدعم النفسي والطبي. كلّ ذلك يعزّز ضعف الشبكة الاجتماعية ويؤدي إلى العزلة، لكنني استطعت تجاوز كل ذلك وإن احتاج منّي للكثير من الجهد والإصرار، ولا أكتم سرًّا أنّ هذه إحدى أسباب هجرتي.

* أحاديث كهذه، لا يجرؤ الكثيرون على الخوض بها خاصة في مجتمعنا الشرقي.

ـ يكمل 'سامي': بلادنا أُريد لها أن تكون عالمًا ثالثًا بعد أن عاشت فترة ذهبية في التاريخ، وكانت تأثيرات حضارتها الإسلامية والعربية بارزة، بفضلها ازدهرت العلوم والفنون والعمارة في ظل التعايش الثقافي والدين القويم.

يكمل سامي: كنت أنا، وما صرته اليوم، أشبه بحالة مرضية عضوية تتطلب علاجًا، وهذا مباح بل أقرب ما يكون لعملٍ واجب أداؤه بإشراف مختصين بعد دراسة حثيثة لكلّ التفاصيل بغية الوصول لنتيجة مرضية.

ولكن ليست هذه هي الحال دائمًا؛ فبعض من يخوض هذا المضمار، مضمار التحول الجنسي، يعانون من اضطرابات

نفسية وآثار صدمات أو رواسب ذكريات الطفولة، إضافة للتأثير الخارجي من أصدقاء أو ثلة مجتمعية مع أدواتها ومنبرها، وقد صار لكلٍّ منها منابر، من خلال مواقع التواصل الاجتماعي.

هؤلاء بحاجة لعلاج نفسي؛ هم أشبه بمن يعاني من وسواس قهري أو اكتئاب أو حتى هوس. الطريقة المثلى للتعامل معهم هي علاجهم، لا تشجيعهم على هواجس ما وإيجاد مبررات لها أو محاولة خلق واقع هو أصلًا غير حقيقي وغير سوي. هم مرضى وفي حال نفسي يجب علاجه.

فمثلًا؛ إذا أتيت إلى الطبيب وأخبرته أني شخص انتحاري مبتور اليد محبوس في جسد صحي وأتيته ليقطع يدي، سيشخّص الطبيب متلازمة نزاهة الهوية الجسدية Body Integrity Identity Disorder، ولكني إذا ذهبت إلى نفس الطبيب وأخبرته أني رجل محبوس في جسد امرأة وطلبت منه أن يستأصل ثديي، سيستجيب الطبيب ويجري لي العملية!

إذا أردت أن تقطع يدك أو رجلك فإنك تعاني من اضطراب، ولكنك إذا أردت أن تقطع ثديك أو عضوك الذكري أو استبداله بعضو جنسي آخر فإن ذلك حرية وخيار يجب دعمه ومساندته.

إنّ جوهر مفهوم العلاج هو «استعادة الجسم إلى وظيفته ووضعه الصحي». فإذا أصبحت الحالة الذهنية للشخص مخالفة

لما هو عليه في الحقيقة، فإنّه حينئذٍ يصبح مريضًا ينبغي علاجه.

* أقول أنا: أظن أنّ التحول الجنسي يُعَدُّ خطوة شجاعة ولكن ربما سعى الأفراد لتحقيق هويّتهم الحقيقية والعيش وفقًا لمشاعرهم الداخلية، الجميع يستحق الاحترام والتسامح.

ولكن هل يجب أن نعتبر التحول الجنسي الحل الوحيد؟ هل هناك بدائل أخرى يمكن أن تساعد الأفراد في التعايش مع تحدّيات هويتهم؟

لا يمكن للمرء فهم المعاناة الداخلية للآخر بشكل كامل. التحول الجنسي ليس فقط قرارًا شخصيًا بل هو أيضًا خطوة للتحرر من القيود الاجتماعية والعيش بحرية.

ـ يضيف 'سامي': لنقارن مجددًا بين الشعور بالاختلال في الهوية الجنسية وبين سائر الاضطرابات الذهنية مثل فقدان الشهية العصبي والشَّرَه المرضي العصبي: «فمن يعانون من هذه الاضطرابات الذهنية يعتقدون افتراضًا يخالف الحقيقة، فكما يعاني مرضى فقدان الشهية العصبي والشره المرضي العصبي من خلل في اعتقادهم لما يخالف طبيعة الطعام وطبيعة جسمهم، فإن مرضى الاختلال الجنسي يعتقدون ما يخالف ذكوريتهم أو أنوثتهم.

قرأت دراسة تقول: أن 70% ـ 80% من الأطفال الذين اختبروا شعورًا باضطراب الهوية الجنسية ولم يتم علاجهم طبيًّا ولا جراحيًّا قد فقدوا هذا الشعور مع الزمن. ما يعني أن مشكلتهم كانت أمرًا طارئًا يستوجب العلاج والتعامل معه كما يتم التعامل مع أي مرض نفسي أو اضطراب ذهني، لا التعامل معه بصفته أمرًا يستحق الإقرار بصحته وتشجيع الناس عليه.

فمثلًا؛ في إحدى الجلسات العلاجية لطفل لديه ميول تحولية كما زُعِم، حيث ترك لعبته «الذكورية» الشاحنة، وأمسك بعروسة (باربي) «أنثوية». وقال: إن أبي وأمي لا يحباننني.

وبعدها علم المعالج أن أخته كانت من ذوي الاحتياجات الخاصة وتنال رعاية وعناية أكبر من قِبَل الوالدين، وبالتالي اعتقد أن أبويه يحبّان الفتيات أكثر من الأولاد، أو أن الفتاة عمومًا تحظى بحب واهتمام يفوق ما يحظى به الصبي، ممّا دفعه إلى إيهام ذاته بأنه سيحظى بحبّ أكبر عندما يكون فتاة. ومع العلاج الأسري والنفسي تحسّن الطفل وتراجع عن رغبته وأكمل حياته سويًا.

كان يمكن أن يحدث سيناريو آخر: أن يدفعه والداه دفعًا للشذوذ، ويغيّرا اسمه ويتأكّدا من أن الجميع يعاملونه كفتاة، وذلك خوفًا من أن يصيب نفسه بسوء أو ينتحر مثلًا، وهنا يبدآن بإعطائه أدوية خاصة وهرمونات لمنعه من البلوغ. وصولًا

لاستكمال حالة التحول الجنسي المزعومة، مع الأضرار البالغة الناتجة والتالية لذلك.

هل يعتبر هذا الاختيار مسؤولًا؟

وهذا السيناريو الآخر قد حصل فعلًا وقد عرض في بعض البرامج الاجتماعية في الولايات المتحدة، وانتهى بالانتحار بعد أن وصلت المراهقة التي دفعت للتحوّل إلى نقطة اللاعودة واللااستقرار.

يضيف سامي: أنا أكثر من يعلم عن التأثير النفسي والاجتماعي لهذا القرار وكيف يؤثّر على العلاقات الشخصية والمجتمع.

وأخيرًا وليس آخرا؛ هناك طائفة من الناس تسعى للاختلاف والتميز ولو كان شاذًا، منهم الضال ومنهم المضلل، يركبون أي موجة وينعقون مع أي ناعق، يتشدقون بأقوال وقيم مدسوسة ولا أخفي سرًا أن وراءهم من يريدون أن يعيث الفساد في الأرض. وهي حال الكثيرين ممن يخوضون غمار المثلية والتحول الجنسي.

يمكن الانفتاح على قضية التحول بشكل مدروس جدًّا من دون الحاجة إلى تسويق ذلك. هي حالات خاصة دقيقة تحتاج إلى الدراسة والتأنّي وقد تكون إحداها حالي أنا. وكذلك المثلية.

يمكن تحقيق التسامح واحترام التنوّع بشكل آخر..

كيف يمكننا ضمان أن قرارات التحول الجنسي لا تؤثّر سلبًا على الأفراد والمجتمع؟ هناك حاجة إلى سياسات ودعم اجتماعي لضمان نجاح هذه العمليات، ضمن قيود علمية وحالات خاصة، من دون إثارة مشاكل جديدة.

* أراك قد استفضت بالحديث، ويبدو أنك تقف موقفًا سلبيًا أو معارضًا وحتى متطرفًا من الموضوع، ألا تجد أنك تبالغ في ذلك؟ ألا تجد أنك تصادر حريات طائفة من الناس؟

ألا تعتقد أنك لا تواكب الحداثة وتطور المجتمعات؟

ـ بل أعتقد أنّي أقف موقف من خاض غمار هذا البحر وفهم كنهه وعاش تفاصيله وأكمل كل ذلك بدراسة واطّلاع علمي دقيق.

ولا أخفي عليك أنّي عايشت الكثير من حالات كهذه، وكنت موضع ثقتهم ومرجعهم.

تنتهي جولتنا وتتوقف أحاديثنا من دون أن تنتهي، وتبقى وجهات نظرنا مختلفة. نعود إلى روتين حياتنا اليومي، وزحمة الأشخاص والأحداث اليومية في مراكز الإيواء، والشارع، وكامل هذا المجتمع باختلاف أطيافه واهتماماته وقناعاته.

صار تواصلي مع اللاجئين يوميًّا، أتعرّف على الكثيرين منهم وأخوض في شخصياتهم، ذكرياتهم وطموحاتهم ويومياتهم أيضًا.

هذا من جهة ومن جهة أخرى استكشف عالم هذا المجتمع الجديد وأحاول دخوله.

دروس اللغة والمحاضرات التي تلقى علينا تغني معرفتي، والتحدث مع الأشخاص الجدد الذين ألتقي بهم في المواقف اليومية، سواء في السكن والشارع أو المدرسة أو حتى في الأنشطة على خلافها، الاجتماعية أو الرياضية وحتى الرسمية.

أصبحت ممّن لا يتردد في المبادرة، وفي دعوة الأشخاص للقاء أو القيام بأنشطة مشتركة والتعرف على الآخرين.

لا أتردد في التحدث مع أشخاص جدد وغرباء، أوسّع دائرة معارفي من خلال التفاعل المباشر مع المحيط الواقعي بشقّيه اللاجئ والأوروبي أو استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، كل ذلك أسهم في تعزيز صداقاتي والاندماج التدريجي.

ساعدني على ذلك الابتسامة والوداعة وحسن الاستماع للآخرين والاهتمام بما يقولون، وفي الوقت ذاته قوّة شخصيّتي وتسلّطي أحيانًا.

بنيت روابط قوية وخلقت جوًّا إيجابيًا أنّى حللت، وهذا ما يجعل الآخرين يشعرون بالراحة والتواصل معي.

اهتممت بما يجري من لقاءات أو ما يعرض من محاضرات.

ومن ضمن الدروس المطروقة سواء تحت عنوان تعلّم اللغة أو المحاضرات التثقيفية، وصولًا إلى سياسات الاندماج بالمجتمع، كان الجنس حاضرًا. كنا بانتظار محاضرة تشرف

عليها وترعاها جمعية LWVD، المشرفة والناشطة في الجمعية: «فرد فالد» التي أصبحت صديقتي، والشخصية الأكثر نفوذًا وتأثيرًا بها، والتي بنيت علاقة ودّية معها وأظهرت هي تعاونًا وقربًا.

'فردفالد' لم تبلغ الأربعين عامًا بعد، ذات شعر أحمر نحاسي متوسط الطول عادة ما يكون مربوطًا إلى الخلف، في عينها اليسرى حَوَل، ترتدي نظارة بإطار وعدسات مدوّرة. شفتاها رفيعتان تبتسمان بابتسامة أخّاذة، تكاد تكون بوابّة لعالم غامض، تعكس على وجهها رموز الغموض والخفية، وراءها عالم لا يمكن لأحد الدخول إليه إلّا بإذنها.

ذات بنية جسدية متوسطة متناسقة، دون طول أو قصر مميّز، ولا نحافة أو بدانة ظاهرة. تميزها رقبتها الطويلة نسبيًّا. عادة ما ترتدي ثيابًا رسمية، بدلة بألوان داكنة سترة وتنورة أو بنطال مع قميص بألوان هادئة كلاسيكية وحذاء متوسط الارتفاع وحقيبة يد صغيرة. تضحك بين كلّ عبارتين كلما تحدثت.

روجت للمحاضرة على أنها مؤثرة وضرورية وتساهم في الاندماج بالمجتمع الجديد.

هدفها المعلن فهم ذواتنا وهويتنا الجنسية لبناء علاقات صحية في المجتمع أساسها التفاهم والاحترام والسعي لتحقيق كلّ ما يعزّز ذلك.

تمّ اختيار توقيت مناسب لها، ما بعد الفطور الصباحي، وهو الوقت الذي يجتمع فيه غالبية من يتواجد في المركز، إضافة للصفاء الذهني الصباحي الذي يساعد على الانسجام ومتابعة وفهم ما يعرض.

ولا شك أنّ التخطيط لمحاضرة كهذه، جاء بعد فهم جمهور اللاجئين، وأغلبه من بلاد محافظة، تتمتع فيها الأسرة بمكانة خاصّة رغم ما يعانيه من كبت واضطرابات شتى، إضافة لحساسية موضوع الجنس وعدم الخوض به بشكل تثقيفي وعلمي ومعلن.

تمّ إعداد محتوى غني ومنظم، بغض النظر عن صدق وحقيقة هذا المحتوى، وتمّ عرضه بشكل مشوّق دعائي، وكأنّما تبذل جهود حثيثة وغير بريئة لتبديل مفاهيم وإضافة أخرى غريبة عن طبيعة الجنس البشري.

شارك أشخاص ذووا تجارب شخصية وشهادات حية أيضًا، كانت 'سلمى' تهمس في أذني أحيانًا: لا يخفى على أحد أنّه أعدّ لزرع أفكار معينة تكون اللبنة الأولى في تشكيل أيديولوجيات معينة لغاية «في نفس يعقوب».

الجنس مهم جدًا في حياة البشر، وإذا ما تعاملنا مع قضية الجنس على أنه شيء مبتذل ومعيب، فنحن هنا نقتل كل المجتمعات على وجه الأرض، ومن الضروري جدًا أن نفسّر ونحلّل وندقّق بالمشكلات الجنسية، لإيجاد حلول جذرية

وواقعية صحية وصحيحة للعُقَد التي يسببها، ومن ضمنها الإضراب عن الزواج، أو حتّى السعي الحثيث له، وانعدام الصداقة والمصداقية بين الذكر والأنثى وحصرها بين هذين الجنسين فقط. وحالات ما قد يسمى الشذوذ الجنسي، وحالات الطلاق والانفصال واسعة النطاق وعدم التكافؤ والاكتفاء الذاتي والترشيد للمتزوجين، والانحلال الأسري وفسخ الخطوبة بسبب حواجز وموانع عائلية وفردية ونفسية.

إضافة لمجموعة المشاكل وعشرات العقد النفسية التي اكتشفها فرويد.

الميل الجنسي: هو الجاذبية العاطفية أو الجنسية أو الرومانسية نحو الآخرين. يمكن أن يكون الميل الجنسي مثليًّا (نحو الجنس نفسه) أو (نحو الجنس المقابل) أو مزدوجًا (نحو الجنسين) أو غير ذلك.

هويّتنا الجنسية، هي نقطة البداية: امرأة أو رجل أو غير ذلك حتى، هي الشعور الداخلي بالانتماء إلى جنس معين أو لا شيء منهما أو كلاهما أو ما بينهما. يمكن أن تتطابق الهوية الجنسانية مع الجنس الذي تم تعيينه عند الولادة أو تختلف عنه. يمكن أن تكون الهوية الجنسانية ثابتة أو متغيرة مع الزمن.

وهذا ما يظهر في تعبيرنا عن أنفسنا سواء من خلال المظهر الشخصي أو الاسم الذي نحمله أو التصرفات التي تعكس ذواتنا وتنم عن قناعاتنا واهتماماتنا والطريقة التي نعبّر بها عن

أنفسنا. وبالتالي يوجهنا حتمًا إلى اتجاه الانجذاب العاطفي تجاه الآخر باختلاف جنسه مماثلًا كان أو مغايرًا.

التجارب الجنسية السابقة جزء من ثقافتنا التي أنتجت ذاتنا وتأثيرها واضح على ما نحن عليه الآن أو ما سنكونه لاحقًا.

* تتدخل 'فردفالد' قائلة: نتحدّث عن كل ذلك في جو من الاحترام وقبول التنوع في هوياتنا الجنسية والاحترام المتبادل بين الأفراد.

يمكننا القول إنّ الوضع الحالي للمثليين والمتحوّلين جنسيًّا في المجتمعات الشرقية هو وضع متحرك ومتغير، يعكس التوتر بين القوى المحافظة والقوى التقدمية. من جهة يواجهون تمييزًا وعنفًا وقمعًا من قبل القوانين والمؤسسات والمجتمعات التي تعتبر توجهاتهم وهويّاتهم مخالفة للشرع والعرف والأخلاق، في مقابل مقاومة وتضامن وتنوّع في التعبير عن أنفسهم والدفاع عن حقوقهم التي يحظون بها هنا. لا بد من فتح المجال للحوار والتغيير والتطور، لمواجهة الصور والأساطير والمواقف التي تؤثر بشكل سلبي، وتعزز التمييز والكراهية في المجتمعات، ممّا يزيد من التحديات الاجتماعية والنفسية.

عرضت المحاضرة بشكل منظم عبر وسائط مرئية ولم تخلُ من التفاعل والتواصل مع الجمهور، وبعض الأسئلة والمناقشة.

تم توزيع بعض الهدايا للمشاركين مقدّمة من بعض الشركات العالمية، ساعات ذات أحزمة بألوان قوس قزح من «شركة

أبل»، وأحذية رياضية بذات الألوان من «شركة أديداس»، وسترات رياضية من «شركة نايك» كتب عليها «الحبّ يجمع»، أمّا من «شركة أولاي» لمستحضرات التجميل المرطب اللّيلي الشهير لتنعيم التّجاعيد، في عبوة مزينة مكتوب عليها «Love is Love»، وغير ذلك من الشركات العالميّة كثير.

8

كنت و'سلمى' إضافة ل 'سامي'، نقضي الكثير من الأوقات المشتركة سويًا، الاحترام المتبادل، والتفاهم سِماتنا، لا يبخل أحدنا تجاه الآخر بالاستماع الجيد والوفاء والدعم في الظرف الجيّد والسيّء على السواء، نَصدُق القول معًا لا نصدِّق عليه، حتى وإن تباينت بنات أفكارنا.

للمغترب، الصداقة ليست مجرد ترف يطلبه بل تمثل دعمًا عاطفيًا واجتماعيًا أثناء تجارب الحياة الجديدة. الصداقة تلعب دورًا حيويًّا في تخفيف الشوق للوطن، وتقديم الفهم والتعاطف في وقت الضغوط والتحديات. تكون الصداقة أيضًا وسيلة لاكتساب تجارب محلية وفهم أعمق للثقافة المحيطة. وهكذا كنا معًا.

بعد أن انقضت أيام الشتاء، سيرًا على الأقدام تجوّلنا في ذاك اليوم الصيفي الجميل الدافئ بالقرب من مبنى الرايخستاغ ذي الهندسة المعمارية المميزة، وهو المقر الحالي للبرلمان الألماني، نتجه نحو بوابة براندنبورغ أو بوابة برلين ذات الأعمدة الستة الضخمة، شاهقة الارتفاع، المصنوعة من

الحجر الرملي، والتي يميزها تصميمها الكلاسيكي، الذي يكشف عن روعة المعمار آنذاك، يعلوها تمثال «الكوادريجا فيكتوريا» إلهة النصر الرومانية هو ما أكسبها المزيد من التألق.

وفيما كنا نكاد نصل للبوابة:

* تقول 'سلمى': ما هذه الجلبة عبر شارع «ايبرت» Ebertstraße؟ جمع غفير من شباب وشابات بأشكال وأزياء غريبة وألوان شتى فاقعة، بعضهم عاري الصدر.

وما بين حياء وفكاهة تقول: يتفننون في لبس حمالات الصدر بأنواعها، Push-Up Bra, T-Shirt Bra، أخرى بحمالات حول الرقبة Halter Bra وأخرى من دون حمالات Strapless.

ـ يبتسم 'سامي'، أفضّل أنا Bralet Bra غير المبطنة، والرياضية.

وبعيدًا من حمالات الصدر، انظروا إلى قصات الشعر، ملونة وغريبة. الموسيقى تصدح بصخب، ورقصات تكاد تكون مجنونة.

كان قد تجمع حشد من الناس بعشرات الآلاف بالقرب من منتزه تيرغارتن وساحة بوتسدامر بلاتس وآخرون على ألواح خرسانية ظاهرة فوق الأرض، هي نصب تذكاري للهولوكوست. يتجه الجميع اتجاه بوابة برلين.

ـ يقول 'سامي': إنها احتفالية الثامن والعشرين من حزيران، ما يسمى بموكب برايد، مسيرة الفخر، يأتي

إحياءً لذكرى هذا التاريخ الذي بدأ في نيويورك من العام 1969.

* اسأله: ما لهذا التاريخ من معنى أو ذكرى؟

- يجيب: كانت عائلة «جنوفيس» التي تدير سلسلة كبيرة من الحانات، وهي المشهورة بأنّها من أكثر العائلات إجرامًا في المدينة، قد بدأت باستقطاب المثليين في عددٍ من حاناتها، وعقد تجمعاتهم غير القانونيّة، وكل ما يتعلق بهم كان غير قانوني حينها ومخالف للطبيعة البشرية. وذلك لأنّ عموم الحانات والمطاعم في المدينة كانت ترفض دخولهم إليها. وفي هذا اليوم داهمت الشرطة شارع كريستوفر حيث كانوا قد تجمعوا، اعتقلت بعضهم، فثاروا ضدها وأصبح هذا اليوم ذكرى يحتفل بها.

يحتفلون بمسيرة الفخر (Pride parade) وهي مسيرة تنظمها المنظمات داعمة للمثلية وتدعو مجتمع الميم من المثليين والمثليات وثنائي الميول والمتحولين إلى أن يكونوا فخورين بميولهم والتصدي للكره من رهاب المثلية.

في هذا اليوم، تجهد طائفة من الناس لملء الأبصار بألوانهم وأعلامهم الفاقعة، وإشباع الأسماع بأغان وموسيقى صاخبة، كل ذلك من خلال الفعاليات والمظاهرات والإعلانات التجاريّة والتّضامنيّة في محاولةٍ لتطبيع البشريّة مع

هذه الشذوذ. وفي الأعوام الفائتة تكرّرت ممارسة البلطجة ضد أيّ صوت مخالف لهم. أسموه يوم فخر المثليين، وقد كان الاحتفال بهذا اليوم سنويًا، ثم بدأ التّخطيط لتكون الفعاليات والبرامج على مدار الشهر كاملًا وعلى امتداد دول وعواصم عدة، وهذا واقعًا ما حدث ويحدث. استجابت العديد من الدول لذلك وكان تأثير بعض الجمعيات والنافذين جليًا من دون أن يكون بريئًا. بخلاف ما يدَّعون أن ذلك كله في سبيل تحقيق حرية الإنسان والتسامح والاحترام.

ولم توفر الكثير من الشّركات العالميّة جهدًا للتفاعل مع المثليين، الذين يشار إليهم باللغة العربيّة بمجتمع الميم، وغدت تشارك في هذا الشهر سنويًّا بتصميمات خاصّة تطرح في الأسواق العالميّة تحمل أعلامهم وعبارات داعمة لهم، ومن هذه الشركات؛ «شركة ديزني» التي أعادت تسمية «مجموعة قوس قزح ديزني» باسم مجموعة «ديزني برايد»، وغيرها على سبيل المثال لا الحصر: «ابل Apple واديدس Adidas ونايك Nike وأولاي Oley».

ـ تتدخل 'سلمى': صحيح، صحيح. تم توزيع العديد من الهدايا هذا الشهر بشعارات كهذه في مراكز الإيواء.

* يستكمل 'سامي': تستقطب فعاليات هذا الشهر وقد أطلقوا عليه أسماء رنانة، شهر الكبرياء والفخر، ملايين المشاركين من جميع أنحاء العالم كلّ سنة.

وتستمر الاحتفالات في وقتنا الراهن لمدّة شهر كامل، وهي تتضمّن مسيرات في الشوارع وحفلات موسيقية وورش عمل وندوات. ويبرز في هذا الشهر حمل أعلام قوس القزح بستة ألوان وهو العلم أو الشعار الذي قد تمّ تغييره بعد تصميمه عندما حدث شح في توفر خامة الأقمشة الوردية المطلوبة لصناعته في إحدى الاحتفالات، فأُلغيت من التصميم. وللحفاظ على أن تكون أعداد الألوان في العلم زوجية، أُلغي اللونان النيلي والبنفسجي، ليحل محلهما اللون الأزرق.

إضافة لأعلام شتى ظهرت في العقدين الأخيرين تماشيًا مع ظهور وتزايد ما يسمونه الجندر Gender، وصار كل تجمع يبتدع علمه: علم العابرين جنسيًا وعلم الشمولية الجنسية، علم البينية الجنسية والهوية المرنة واللاجنسي.

ويختم 'سامي': ويبقى للفطرة فخرها وأهلها المنافحين والمكافحين والمدافعين عنها والمفتخرين بها، ولكّلٍ وجهةٌ هو مولّيها».

ـ تعلّق 'سلمى' مجددًا: في سياق البروباجاندا الجنسانية، تغير مفهوم الجنس الذي كان: أنثى وذكر، وابتدعوا مفهوم النوع أو الجنوسة أو الجندر Gender على أنه شعور الفرد بنفسه الذي يشكل هويته الجنسية

Sexual identity. وبذلك صار المتحوّل جنسيًا Transgender وهو بمثابة المظلة التي يجتمع تحتها كل من لا يتوافق الجندر الخاص به أو هويته الجنسية مع الجنس البيولوجي لجسمه المعقود منذ ولادته.

يقوم الخطاب الداعم للمثلية الجنسية بنشر فكرة «طبيعية» الشذوذ الجنسي معتمدًا على ثلاثة محاور:

الأول هو مقارنة السلوك البشري بالسلوك الحيواني إذ أن كثيرًا من الحيوانات قد تمّت ملاحظة ممارستها لسلوك جنسي مثلي. وهذا استدلال خاطئ من وجهين، الأول: هو أن الغرائز والسلوكيات الحيوانية لا يصح قياسها على مثيلتها الإنسانية. كما إن أغلب الحيوانات التي تمارس السلوك الجنسي المثلي لا تمارسه من دافع الشهوة والرغبة الجنسية في الجنس المثيل.

والمحور الثاني هو العوامل البيولوجية والجينية التي قد تؤثر على الهوية الجنسية. الزعم بوجود «كود جيني» معيّن في الحمض النووي البشري مسؤول عن الشذوذ والسلوك الجنسيّ بشكل عام. أغلب هذه العناوين مشكوك في مصداقيتها ومدى صحتها ونفتها الأبحاث العلمية الحقة.

أما المحور الثالث يتمحور حول أن المتغيّرات البيئية والعوامل الاجتماعية لا علاقة لها بتحديد التوجّه والهويّة الجنسية. وهذا ينافي الحقيقة. فغياب الأهل أو اضطراب دورهم التربوي، كأن تلعب الأم دور البطولة في حياة الطفل،

أو اختفاء القدوة الذكر وتهميش دور الأب أو اتسامه بالعنف. بالإضافة إلى الكبت، القسوة، كلها أسباب قد تولّد الشذوذ.

ولا مناص من القول أن الماضي وذكرياته والتجارب المزعجة التي يتعرض لها المرء في صغره، وعلى سبيل الذكر لا الحصر التحرّش الجنسي مثلًا.

والحقيقة أن العامل الأبرز في تفشّي هذه الظاهرة يعود إلى إرادة الإنسان وخياره في اتخاذ هذه الوسيلة للتعبير عن رغباته وعواطفه. قد يكون ضحية ظروفه، لكن خياراته الخاصة تقوده إلى هذا الطريق.

إن الغرب كان ساحةً لحملة من التضليل والخداع في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة جعلت مؤسّساته العامّة من المشرعين إلى القضاة ومن الكنائس إلى التخصصات الذهنية الصحية يؤمنون بشكل واسع أن المثلية الجنسية موروثة عضويًا وبالتالي لا يمكن تغييرها. وقام هؤلاء المشروعين بتشريع هذه الشذوذ ولاحقًا تشريع زواج المثليين وإعطائهم الكثير من طلباتهم والامتيازات والحماية.

هكذا، وفي عالم اختلط فيه الخيال مع الوهم، تم التلاعب بوعي الناس وأحيانًا قمع الآراء المخالفة من أجل إقناع الرأي العام بصحة الأيدولوجيا الجندرية، مهما كلف ذلك من إفساد لحياة أطفال لا يزالون في مقتبل عمرهم، من خلال مناهج دراسية تروّج لذلك ولم تغب حتى عن المؤسسات التعليمية في

الشرق. وإجراء عمليات تحول جنسي لأشخاص يعيشون حياة طبيعية تمامًا، لا لشيء، إلّا لأنه ورد على خاطرهم فكرة ما، وبدلًا من معالجة تلك الفكرة، صار على الناس أن يتقبّلوها ويشجعون صاحبها عليها[1].

أصغي للحوار الذي أسمعه منهما، أوافق وأعترض ضمنًا وأربط شيئًا ممّا أسمع بأحداث ومناسبات خلت؛ ثم أقول:

أستطيع أن أفهم معرفة 'سامي' بكثير من المعلومات المتعلقة بالموضوع. وذلك لمعرفتي أنّه رجل في سوابقه تشوّه عضوي تم علاجه.

ثمّ توجهت إلى 'سلمى' قائلة: من أين لك كل هذه المعرفة وكيف تؤكدينها؟

ـ تعلمين أني كنت مدرسة لمادة العلوم في ثانوية مرموقة قبل أن يسكنني طريق الهجرة. قرأت وتابعت الكثير من الدراسات العلمية والجينية المتعلقة بذلك.

الرجل هو الرجل والأنثى هي الأنثى، أشعر أنا مثلًا بأنوثة تتملكني وتملأ كياني، رغم ما أسمع من تنمّر تجاه بعض ملامحي الذكورية، أجد نفسي المرأة الجميلة، ذات عاطفة قوية وقدرة على فهم ذاتي والتعبير عن مشاعري كأنثى، أحيا وأعيش الأنوثة وأمارسها بكل تفاصيلها ولا أقبل عنها بديلًا.

---

(1) بتصرف من بحث لـ إبراهيم السيد نشر على موقع الجزيرة.

الانحرافات الجنسية بجميع أطيافها، هي محاولات تفريغ لطاقة عاطفية مكبوتة، لم تجد لها مجالًا متوافقًا مع العقل والبيئة لإطلاقها فأخذت طريقها نحو التأويل.

* يكاد يشهق 'سامي' مقاطعًا: ما هذا الجمال الذي أراه!

هنا تتجلى الأنوثة:

فتاة شقراء ذات شعر يمتزج بين درجات الذهب والعسل، يتساقط بأناقة حول كتفيها كلحاف ناعم. عيناها الخضراوان تتألقان كأحجار الزمرد، تعكس بريقًا يمزج بين الغموض والجاذبية. قدّها الممشوق منحوتة جمال طبيعي، مع خدين يشيران إلى رونق شبابها. وابتسامتها اللطيفة تنثر دفئًا يغمر الجو بأجواء رومانسية.

النهدان الصغيران يضفيان على ملامحها لمسة لطيفة، وكأنّهما وردتان خجولتان تتوسطهما لؤلؤة بارزة. واضح أنها دون حمالات صدر. يقول ذلك مع نصف إغماضة في عينه؛ وردة الأنوثة تزهو بفتنة مع منحنيات جسدها.

ـ تقول 'سلمى': على مهل على مهل...

أي وصف جسدي هذا، هي تتألق بأنوثتها لا بجسدها، أو بالأحرى يتكاملان كلمسة فنان يرسم لوحة جمالية تأسر القلوب.

فتاة أنيقة بأزياء تعكس رونقها الفريد، شاهدوا تناسق وانسجام بلوزتها البيضاء الرقيقة مع بنطال وشال أسودين تربط الأخير حول خصرها.

كنا نمشي باتجاهها، وهي تقترب منّا حتى بانت تفاصيلها:

تنسجم إكسسواراتها البسيطة بأناقة مع إطلالتها اللامعة. حقيبتها تحمل لمسة عملية وفخامة، وحذاؤها يضفي لمسة جريئة وأنيقة على خطواتها.

شعرها المصفّف بأناقة يتدرّج بين الطبيعي والأنيق تعلوه قبّعة «بيريه» ذات شكل دائري مميز مع طرف مسطح. مكياجها الخفيف يبرز جمال وجهها بلمسة ناعمة. جمالها ينعكس في كل تفصيل، محققة توازنًا مثاليًا.

راق لي جدًّا ما سمعت منهم عنها قبل أن أنظر إليها وأتفحّصها.

وبالفعل سرَّحت ناظري إليها يكسوني إعجاب وانجذاب لا واعي تجاهها، وفيما أسمع تعليقاتهم وإطراءهم، وجدت نفسي أتوجّه إليها بشرود، وفي ذلك تحدٍّ بأني أملك دائمًا الثقة والقدرة على المبادرة. مستعينة بما تعلّمته من لغة:

* أستطيع مساعدتك في التقاط بعض الصور.

ـ أشكرك، كنت أرغب بذلك حقًا.

* أجبتها بعفوية: هلا

ـ هلا أو هولا Hola؟ هلا عربية و«هولا» إسبانية وإن كانت متأثرة بالعربية.

* سألتها بالألمانية: هل أنت إسبانية؟ قبّعة البيريه ارتبطت بالثقافة الفرنسية والإسبانية.

ـ أنا ذات أصول لبنانية، أتكلّم العربية.

* مجدّدًا ينتابني شرود الذكريات؛ أقول لها: جميل، فرصة شهية. إذا نستطيع التكلم بالعربية إضافة للألمانية التي أفضلها.

ـ تقول وعلى وجهها ابتسامة: أظنّ أنك ستلتقطين لي صورة، أو أنّي خسرت العرض؟

اقتربت لأمسك هاتفها، أصوِّرها من خلاله، واذ بي أتلمّس يدها الناعمة ببياضها الأخّاذ وأناملها الرقيقة الساحرة. كنسمة حريرية مرت يدي تلتقط الهاتف فتداعب يدها وأتعمّد تلمّس راحتها. تنقلني لشيء من الراحة والسكينة. ينبهني من شرودي هذا عواء كلب أليف خاصّتها، يدور حولها ويصدر نباحًا أخذني إلى ما يشبه النشوة. ثم أبدأ تعليماتي:

* استديري للخلف، اجعلي جسمك يميل إلى الجانب عند النظر إلى الكاميرا من الوراء، حافظي على استرخاء وجهك عند الوقوف. هكذا ستظهرين طبيعية أكثر.

كان لي باع في التصوير، هو فن حقيقي يوثّق اللحظات والذكريات. التقطت لها أكثر من صورة وعندما عرضتها عليها أعجبت بها كثيرًا وطلبت المزيد. اقترحت عليها أن التقط لها صورًا إضافية بهاتفي وهو ذو دقة واحترافية أكبر فوافقت.

طلبت منها أن تمشي بعض الخطوات نحو الكاميرا من دون أن تنظر إليها، حقيبتها في يدها اليمنى واليد الأخرى تداعب بها شعرها.

كنت ألتقط صورًا فاتنة أثناء توجهها نحوي، إلى أن مدّت يدها باتجاه الكاميرا وكأنها تشير إليَّ: توقفي، ثم بإشارة أخرى تشير بإصبعها نحوي وتبتسم، وثّقت كلّ ذلك بصور عديدة متتالية، ورجفة في قلبي حاضرة، وابتسامة على وجهي وشرود واتّساع في عينيّ، ويعلو نباح كلبها فيؤرقني ويملؤني نشوة.

أبدت إعجابًا كبيرًا بطريقتي في التصوير، وقابلتها بإعجاب بحضورها وإطلالتها، أرسلت لها ما التقطت من صور.

* 'ايلينا' اسمي وهذا رقم هاتفي.

ـ أهزّ رأسي مرحّبة دون أن أنطق ببنت شفة.

كان الجميع لا يزالون قربي دون أن أشعر بذلك، جاذبيتها وانجذابي جعلاني في خلوة وإيّاها دون سوانا، وكأني كنت في مكان آخر مختلف رغم الصخب والازدحام القريب الناتج عن المسيرة.

عدنا أدراجنا وفي وجداني ازدحام وانفصال وبعث.

9

غادرنا المكان والحدث وما فيهما، مبنى الرايخستاغ ما بين تاريخه وجماليته وحتى قيمه والكثير من الثوابت فيه.

بوابة براندنبورغ الجزء الباقي من سور برلين الذي كان يفصل بين الجزء الشرقي والغربي لألمانيا ويفصل بين عالمين مختلفين أيديولوجيًا وسلوكيًا.

نصب الهولوكوست ما له وما عليه. ضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية التي ربما قتل منهم فيها الكثير، كما قتل الكثير الكثير من الأبرياء وعموم البشر من شتى الجهات المشاركة في الحرب وهم ضمنًا، وهي حال الحروب قاطبة. ولكنهم أفلحوا في تضخيمها والاستفادة منها وهم من تميزوا باقتناص الفرص، وتميز العالم أيضًا بالكيل بمكيالين.

ما بين فضاء التاريخ والحاضر، وما بين الصراعات والمؤامرات، غادرنا المكان والمسيرة والحدث وما فيهم، ولم يغادروني. وتربّع على عرش قلبي لقائي بتلك الفتاة الشقراء التي فتنتني؛ انجذاب وجاذبية سكناني.

جلست في غرفتي ليلًا أنشد وحدة وتأمّلًا، من نافذة غرفتي تتمادى أشجار الحديقة مع السماء، يشاركنا القمر، وقلّما يطل هنا، وهو الذي كان أنيس أهل الشرق وملهمهم وأهمّ رموز الجمال عندهم. أستعيد ذكريات وهواجس وأمنيات، هي حقًا ليلة فاتنة، فيها من الجمال والجاذبية الكثير، تشبه فيضان ضوء القمر على الغوطة، حين يتشابك نوره مع خيوط الليل بين فجوات الأشجار.

تباغتني 'ايلينا' دونما قيود، وقد دنت من بيبان قلبي فوجدتها مشرعة لها. تخلق وجمال الليل والمكان مشهدًا ساحرًا يجمع بين الغموض والروعة.

تدفعني رغبة ملحّة إلى فتح بوابات التعارف معها والتقرب منها أكثر، بي رغبة في ذلك ولكن ما الغاية وأي هدف حقيقي أبغي؟

لقد حرّكت مشاعري يقينًا، أعادتني إلى ركن كنت أسعى لحجبه وستره حتى طمسه.

لا أعرف ما إذا كانت تشعر بشيء ما تجاهي. أشعر بالارتباك والحيرة تجاه هذا الموقف، ربما أتحدّث معها عن مشاعري، أو ربّما أختلق مناسبة للاطمئنان عنها، أو أصطنع لقاءً يبدو عفويًا.

هل من الحكمة الإقدام على ذلك؟ أخشى أن يكون ذلك مفاجئًا بالنسبة إليها ويخلق توترًا بيننا، وخاصّة أننا التقينا في جو مسيرة المثليين.

أنا لست منهم يقينًا، رغم انجذابي تجاهها. تشوّش مشاعري وتحريض طفولتي وما بعدها يخلق اضطرابًا في الشعور والرغبة والغاية.

قد يكون من الأفضل فهم مشاعري ومشاعرها أولًا، لا بد من لقاء آخر بيننا، ولكن كيف؟ هل أتردّد إلى حيث التقينا أول مرة؟ علَّ المصادفة تجمعنا مجدّدًا. أو ربما اقترح عليها التقاط بعض الصور الإضافية تحت عنوان تغذية هوايتي بالتصوير وإظهار جمالها. أو ببساطة، أستطيع الاتصال بها ونتبادل بضع كلمات من دون مقدّمات أو تخطيط.

قد يكون لديها انجذاب تجاهي، فقد كانت جدًّا لطيفة معي، أو على الأقل تهتم لصداقتي، أو لعلها تنتظر منّي أن أخطو أنا الخطوة الأولى.

* الخطوة الأولى! في أي اتجاه؟

لكن ماذا لو كانت مشاعرها مختلفة؟ سأكون مكسورة القلب يقينًا.

أمِن الطبيعي أن أشعر بكل هذا الخوف والتردّد في التقرب إليها؟ أم هي رهبة من المجهول؟ أشعر بالتوتر وحتى الهلع، منّي ومنها وممّا قد يحدث بيننا.

كلانا من جنس النساء وطبع الأنثى العاطفة، وبناء الصداقات والبوح. ستكون الأمور أبسط بكثير من هذا الجدل الذاتي الذي أغرق به، ما بين الخوف والرجاء والمتعة والألم،

الجرأة والمبادرة هي الحل. سأكتشف كل هذه التفاصيل حين نلتقي ونتبادل أطراف الحديث، نتكلم بعفوية وصراحة، أفصح عما يجول في خاطري وفكري. لا بد من ذلك.

لكن! هل أشعر بالحب تجاهها؟ وأيّ حب هو؟ حبّ إنساني أو صداقة فتيات، أو هو عشق وغرام؟

هل هي خطوة أولى نحو السعادة؟ أو الاضطراب؟ أو حتى الفناء.

سأحاول التحدّث معها اليوم، لديّ رقم هاتفها، زوّدتني به عندما أرسلت لها الصور التي التقطتها بهاتفي. لن تخونني الشجاعة في التعبير عن مشاعري وهذا هو مفتاح الفهم والتواصل الصحيح.

أمسكت هاتفي واتصلت بها:

* أنا 'يم'، نهارك سعيد.

ـ اهلًا، أذكرك بالتأكيد وأجدّد شكري لك على لياقتك وحسن تعاملك والحِرَفية في التقاط الصور.

هذا الإطراء وبخاصّة بما يتعلق بالصور زاد شجاعتي فعاجلتها:

* سأذهب اليوم إلى حديقة تيرجارتن، مكان جميل. تجدين الطبيعة في وسط مدينة برلين، أدعوك اليوم لالتقاط بعض الصور وقضاء بعض الوقت معًا، ربما نحتسي كوبًا من القهوة أيضًا.

ـ اتفقنا، يبدو أنني لن أقاوم إغراء التقاط الصور.

أسعدني قبولها السريع، كان واضحًا أنّها ستقبل وأنّها مهتمة، هذا أبسط بكثير من كل الأخذ والرد الذي عانيت منه وأرهقني.

تذكرت بضعًا من تصرفاتها عندما التقطت لها صورًا في أثناء مشيها اتجاهي؛ ربما قصدت في حركة يدها بالتوقف ثم الإشارة بإصبعها إليَّ، أنها ترغب بي. وإلا ما معنى أن تشير لي بإصبعها، بالتأكيد كان هذا قصدها: توقّفي أريدك أنت!

أو أنّها حركة عفوية من دون أي تأويل؟

ومجدّدًا، السؤال الأهم الذي لا أجد له جوابًا؛ أيّ اهتمام وإحساس أكنُّ لها؟ صديقة أو عشيقة؟ أو أن ألمانيا ومسيرة المثليين الأمس فعلت فعلتها بي!

هل بدأت برحلة تحوّل ما؟ عبور؟ انجرار؟ اضطراب؟

لأترك كلّ هذه الأفكار جانبًا، الحديقة والطبيعة و'ايلينا' بانتظاري.

في حديقة تيرجارتن، مناظر خلّابة تختلط فيها ألوان الطبيعة وتنعكس على مياه النهر المتدفق الذي يعبر الحديقة لتشكل لوحة فنية بديعة تفرض حضورها الآسر. هنا يمكن الاستمتاع بهذا المنظر والمشي على طول النهر. أتوجه نحو الجسر الذي يعلو النهر:

* يمكنني الحصول على مناظر فائقة الروعة ولقطات كاميرا مميزة، سألتقط لها صورًا هنا، سأجعل من نوافير الماء الرائعة والبرك الجميلة خلفية لصور أخرى.

لطالما جذبتني الطبيعة وسحرتني. لحظات التأمُّل تفرض نفسها عليَّ وتعيدني إلى حياض الغوطة وأيكها. بوسعي قضاء الكثير من الوقت الممتع.

هناك على أحد أماكن الجلوس المُنتشرة في أنحاء الحديقة، سأنتظر 'ايلينا'.

من بعيد، شاهدتها تتنقل بين الورود تشمّ بعضها وتداعب أخرى بيديها، الابتسامة الرقيقة تزين وجهها، ألحظها رغم بعد المسافة بيننا. ترتدي فستانًا ناعمًا يطوّق منحنيات جسدها بسحر، كأنّه وإيّاها قد اعتنيا بكل جوانبها لتبدو إلهامًا فنيًا آسرًا، منحوتة تفوق بجمالها المنحوتات العديدة المتواجدة داخل الحديقة ذات الطراز الفريد.

'ايلينا'، في خطواتها رقص أو فنون أدائية أتقنتها لتكون علامة أنوثة فارقة. أنتقل بناظري إلى مسرح الحفلات الموسيقية التابع للحديقة، وكأنّي بها قد اعتليت المسرح، وبدأ خيالي باستعراض مشاهد وأحداث. لتعيدني من شرودي بصوتها الآسر وهي تناديني. توجّهت نحوي بِرقّة وأناقة، اقتربت مني طبعت على خدّي قبلتين:

* أنا هنا، سعدت برؤيتك، هو يوم صيفي دافئ في طبيعة خلابة برفقة رفيقة مميزة بهية.

ضممتها وقبَّلتها أستنشق عطرها. أمضينا وقتًا عفويًّا مسلّيًا ممتعًا، والتقطنا مجموعة من الصور، تبادلنا أحاديث عامة وحتى خاصّة. تجاوزنا الجسر الذي يعلو النهر حتى نهايته.

وفي خطوة وحركة خاطئة أسقطتها أرضًا، تداركت الحادث وساعدتها. تسبب ذلك بجرح بسيط في يدي، وبتورّمٍ وألمٍ شديدٍ في كاحلها ممّا أعاق حركتها واضطرها للاستناد عليَّ، أعنتها دون تردد، اتكأت عليَّ ما بقينا من وقت في الحديقة، وساندتها بدعم وحب واحتواء. ردّت هي ذلك بشكر وعاطفة ظاهرة وقبلات عبّرت فيها عن مشاعر الود والامتنان بشكل صادق ولطيف.

* أنا ممتنة لك على الدعوة والوقت الطيب ومساعدتك أيضًا، لقد أدخلت البهجة إلى يومي، أنت رائعة، كلّ الودّ والامتنان من قلبي إليك.

أمسكت يدها وشددت عليها قليلًا، وطبعت قبلة على عينها رغم أني كنت قد قصدت جبينها.

وكان وعدًا جديدًا بيننا بلقاءات قادمة، وفعلًا هذا ما حصل.

ينمو الارتباط العاطفي وتتكون الروابط العميقة بين أطراف تجمعهم جاذبية، وأحيانًا روابط لا تحكمها الإرادة أو الوعي،

تتطور إلى التزام أعمق يبنيه الطرفان بالمواقف والود وتطور المشاعر.

افترقنا بعد أن أوصلتها إلى منزلها، ولم تفارق خيالاتي، مجددًا يراودني طيفها، الأنثى الجذابة، ذات العاطفة والإحساس اللافت، أشعر بانجذاب ما تجاهها أو بالأحرى ما يشبه الحب، أهي عاطفة ومشاعر أنثى نحو صديقة، أو ربما أكثر من ذلك. لماذا هذا الاهتمام الشديد بها وبما يخصها، اهتمام بجمالها وأنوثتها؟ شعور مريح ينتابني برفقتها، شيء من التفاهم وسهولة التواصل معها، أم رغبة في القرب العاطفي والجسدي ربما!؟.

الجسدي مجددًا؟ قد كان لي سابق عهد بذلك وإن كان قد فرض عليّ حينها بشكل أو بآخر.

هي لم تطلب حماية أو احتضانًا مني، ولكن أتوق أن أغمرها بذلك، أعبّر عن كل ذلك أقوالًا وأفعالًا. أستمع إليها، أدعمها، أشجّعها، أخلق لها بيئة آمنة ومريحة من الضغوط الخارجية، أهتمّ بحاجاتها الشخصية، أقدّم لها النصيحة، ودائمًا أسعى لتعزيز العلاقة بيننا.

يعكّر مجددًا سيل أفكاري هذا ومشاعري انقباض... لعلها بعيدة عني وعن مشاعري وعن كل ذلك، يؤلمني أن أعلم ذلك أو حتى أفكر به.

قرّرت أن أزورها متذرّعة بالرغبة في الاطمئنان عنها بعد إصابة كاحلها، وإحضار هدية لها، فاخترت زجاجة عطر مناسبة. لم يكن مكان إقامتها بالبعيد، رتبت زيارة سريعة لها، توجّهت إلى منزلها وقد كانت بانتظاري. استقبلتني بحفاوة... وجدتها جميلة جدًا رغم بساطة ما تلبس؛ بلوزة واسعة قصيرة من القطن والشيفون وشورت مماثل. احتضنتها وقبّلتها أسألها عن حالها، وأختبر حالي وربما أُشبعها.

مضت لحظات التحية والاستقبال سريعًا، وكانت قد تجاوزت ألم الكاحل من دون أي عقابيل بنسبة كبيرة. مضى الوقت سويَّةً مريحًا مشوّقًا، ولم يخلُ من التقاط الصور، إلى أن فاجأتني قائلة:

* التقطي لي صورة وأنا عارية، أحبّ هذا النوع من الصور وأتتبّعه بشغف على صفحات مواقع التواصل، ألتقط صورًا كهذه أحيانًا أمام المرآة. أحب جسدي، أريد توثيق تلك اللحظات من شبابي وجمالي. الملابس هي الشيء الذي يفصلنا عن الطبيعة حرفيًّا ورمزيًا. صور عارية كهذه تكون وسيلة لضبط المقاييس المقلوبة، أي لإظهار ما هو حقيقي بذاته، ما هو جميل بذاته، دون أن تجمّله إضافات أو تشوبه، كالثياب مثلًا. صورتي عارية توحي لي بالخلود، بتخطي حدود الزمن والخروج من إطاره، وأقله ارتباط

الملابس والزي بحقبة زمنية معينة. أجد في صوري هذه الكثير من الحقيقة والرفاهية.

كنت قد تراجعت خطوة للوراء ثمّ جمّدت حركتي وحملقت عيناي واتسعتا، بينما كانت تتصرف براحة لا متناهية، أصبحت كاللوحة التي يقلبها الرسام كيفما يشاء. بدأت تتجرد من ملابسها من تلقاء نفسها، حتى باتت عارية، وكنت ألتقط صور المشهد كلّه، أتممت إحدى عشرة صورة بالتحديد.

أحملق فيها، أحبّ الخطوط الانسيابية في جسد المرأة والتفاصيل التي لن تظهر مع الملابس. كانت تجربة فريدة من نوعها، التقطت الصور بصمت من خلف العدسة، وبالكاد ألتقط أنفاسي، وتتطاير في ذهني أفكار شتى، وذكريات ظننت أنّي طمستها.

منحتني هذه الصور شعورًا بالاستحواذ عليها، شعورًا بالامتلاك، امتلاك اللحظة والمكان وامتلاكها هي. وبدا واضحًا عليها شعورها بالحرية والأمان وربما الاستسلام.

اقتربت منها أصلح خصلًا من شعرها المتدلّي الذي يلامس لؤلؤة تربعت على وردة صدرها. قلت لها:

سأصوّر أجزاءً من جسدك وأخفي أخرى، أتقن بعضًا من تقنيّات التصوير، غايتي إعطاء صورة جمالية خاصة وفريدة وناطقة حتى؛ تعبر عن حال من الفرح، الجاذبية، الرغبة والنشوة.

بدت منسجمة، مسترخية، وبدوت منجذبة فاقدة للسيطرة، وما بدأ بالتقاط صورة أو بدا كذلك، انتهى بلمسات ومداعبات أبديتُ فيها سيطرة وثقة ورغبة بالقيادة، وحماسة، واندفاع وحيوية. كنت السيد وهي الخادمة، وكأن مسًّا من النشوة والهوس أصابنا إلى أن صحونا.

لم أستطع منع نفسي عنها، فكأني والوقت اختفينا وكأنّ فيَّ رجل قد فقد السيطرة على غريزته، شعرت بحاجة ملحّة للمس كل مكان من جسدها وشمّه، أن أتحسّس نعومة جلدها، أن التصق بها وكأننا شخص واحد، نلغي بتقاربنا المادي البعد الروحي بيننا.

بتّ لوهلة معطّلة الحواس، منهكة بغريزة غلبتني إلى أن انتبهت على امتعاضها وكأنّها تبعدني، حاولت معاودة الكرة ولكن تململها وتصرفاتها كانت كفيلة بأن تعيدني إلى صوابي.

* لم أكن أريد ذلك.

ـ ولا كان هذا نهجي وغرضي.

ثم يتهادى إليّ غناء أم كلثوم...

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق.. وأفقنا ليت أنّا لا نفيق

يقظة طاحت بأحلام الكرى.. وتولى الليل والليل صديق

وإذا النور نذيرٌ طالعٌ.. وإذا الفجر مطلٌ كالحريق.

كانت مسرعة في التقاط ثيابها ترتديها، وأنا أتلعثم بكلماتي لا أدري ماذا أقول ولا بما أصف ما بدر مني. كيف لا وأنا ذاتي لا أدري ما حصل تمامًا وكيف أفسّره.

رجوتها أن تعذرني مبرّرة أفعالي أنّها عفوية ولا إرادية، وأنّها المرة الأولى ولم أقصد ما حصل، وربّما أكون قد أخطأت وكلّ خطأ معذور. لم تنبس ببنت شفة، لملمت ثيابها في أقل من دقيقة وارتدتها، وأسرعت أفعل مثلها ثم أسرعت نحو باب منزلها.

كأنّي، بنظرة اشمئزاز في عينيها، تهاجمني، وددت لو أنني متّ ولم ألمحها.

ساد صمت بيننا ثم غادرت، وخطواتي تكاد تكون رقصًا وأنفاسي غناء، أشعر بحريّة ونشاط. ابتسامة ترسم ملامح وجهي وأخرى تنمّقه، ثم انزعاج وإحساس بالندم يوقف خطواتي يدفعني لتفكير عميق ومحاولة استعادة وتحليل ما حدث.

عدت أدراجي غير مصدّقة ما قمت به وما حدث، وكأنّي ارتكبت جريمة قتل، والقتيلة «أنا الأنثى»!. مشيت ساعتين وربما أكثر دون وجهة محددة، وفي كلّ خطوة ألف فكرة تجتاح مخيّلتي، وألف سؤال ينغِّص عليَّ.

حاولت استرجاع شعوري حينها لكن سدى!

لم أذكر أنّي بكيت يومًا بقدر ما بكيت يومها. إحساس بالذنب يخنقني ويقطع أنفاسي ويعيدني إلى ماضٍ خلا، ثم شعور بالسعادة لم أدرك كنهه يجتاحني يدعمني ينتشلني من السقوط منهارة بخجل يعتريني.

دخلت إلى غرفتي وقد بدأ الليل يخطف النور، صمت مخيف... كلّ ما حولي يبدو غريبًا، سريري، ثيابي، وحتى غرفتي. جلست هنيهة أمام مرآتي لعلي أراني، وعبثًا لم ترتسم صورتي التي أعرفها، كلّ شيء ضبابي. هممت بأخذ حمّام دافئ، وأنّى لي الهرب من صخبٍ في رأسي قد أرهقني. بالكاد تساقطت قطرات المياه الدافئة على جسدي حتى استذكرت دفء جسدها. بخجلٍ أو تحدٍّ ممزوج بإحساس بالذنب، نطقت:

* أريدها.

هربت من طيفها مسرعة أنشد راحةً علّي أجدها في النوم رغم الكرى الذي جافاني حتى ساعات الصباح الأولى، أصارع نفسي وهواجسي.

* لم فعلت هذا؟ وهل ما فعلت بالغ الخطورة؟

في داخلي ذرّات متناثرة من سعادة إن اجتمعت وسط هذا الضياع شعرت برضا مؤكد. وكيف لي أن أجمعها ومشاعر شتّى وارتباك وحيرة تفرقها.

فجأة أعدت سنينًا مضت وطفولة خَلَت وخِلت أنّي نسيتها، استذكرت فيها مزيج سعادة وإحباط، وسجن عادات وتقاليد، وفطرة الإنسان الصحيحة التي خلق عليها.

الله... أين أنا منه اليوم وقد ارتكبت أسوأ ما قد نهانا عنه.

بكيت بحرقة وفيَّ من اليأس ما يدعوني إلى الموت، ليس هناك أسوأ من ألّا يعرف الإنسان ذاته. تائهة أنا بين لذّة

استحوذت عليّ ونداء سماوي وذاتي يدعوني لتركها واللجوء إليه.

هممت بصلاة تذكّرت أنّي هجرتها منذ أمد ولم تخطر ببالي مسبقًا، ابتسمت وأطلقت العنان لضحكات خفيفة ثمّ متعالية هستيرية انتهت ببكاء أحرقني.

الآن أريد الله؟ أين كنت سابقا؟ ولعلي كإبليس بابتعاده عن طرق النور بشكل نهائي.

غلبتني نفسي وصورة 'ايلينا' وهي التي ترتسم أمامي كلّ حين.

* لم؟

أخدت نفسًا عميقًا: حقًا أنا تعبت... حتى في تنهيدتي أشتمّ عطرها. لا بدّ أنه الجنون، أو إنّ الحب هو ربيب الجنون.

في صباح اليوم التالي بوجه بائس وعيون منتفخة، ذهبت إلى بيت 'ايلينا' وبي إصرار على البوح لها بكلّ مكنوناتي، أريد أن أخبرها أني لا أستطيع الابتعاد عنها بغض النظر عن طبيعة العلاقة بيننا، فقط أريد قربها. بخطوات مرتجفة وكأنّي أساق إلى الإعدام اقتربت من منزلها، وكأنّي المفجوعة بفقد حبيب، ترددت بقرع الباب بادئ الأمر، ورغبة بالهرب تتردد إليَّ، وقفت قليلًا أكلّم نفسي، لا أمَل في تبرير ما فعلت ولا عذرًا أقدمه لها، فقررت الرحيل خائبة.

وبعد عدة خطوات في طريق العودة نظرت حولي، لا أجد مكانًا آنس به، أأرحل تاركة قلبي معها؟ وكيف بحياتي دونه، ودونها؟ يجب عليّ المواجهة، لم يكن مناسبًا أن أعود والتساؤلات كحد سكين تجرحني من كل جانب. لكنّي عدت إلى غرفتي كعصفور تعب من أفق السماء، عاد إلى حضن عشّه ليستريح. سألقى الراحة حقًا معك يا 'ايلينا'؟ ستقبلينني؟

أعدت الكرة في الأيام التالية، أتردّد إلى جوار سكنها مرّات عدّة، حالي كمجرم يتردّد إلى ساحة الجريمة. أشعر بالإثارة أو الحماسة والمخاطرة، وحينًا أشعر بالقوّة والسيطرة على الوضع وحينًا آخر أفقده. ومع ذلك، يصاحبني ذلك الشعور بالخوف أو القلق. أشعر أنّ لهذا المكان في نفسي انتماءً وقبولًا، يوفران لي دعمًا ولذةً وحتى سعادة ثم شقاء.

ومع مرور الوقت، دخلت بما يشبه الإدمان النفسي على ذلك، أشعر بالمتعة والراحة النفسية ثم بالألم، ممّا يدخلني إلى دورة من تكرار مستمر لارتياد جوار منزلها ومشاعري بين الخوف والرجاء.

تدحرجت أيام الأسبوع الذي انبلج بعد ذاك اليوم الذي أعاد خلط كياني واضطراب رغباتي وأحيا شيئًا من ذاكرتي. كل يوم هو تحدٍّ جديد لنفسي، ولعلاقتي بها التي أنشدها وأنغمس بها.

تقتحمني بنات أفكاري بعد قطيعة غير معلنة بيننا:

* ربّما قطيعة هذه الأيام القليلة مع 'ايلينا' هي فراق!

لم أستطع إدراك كامل ما حدث. هل كلانا مثلي الجنس حتى انغمسنا بسرعة سويةً؟ كان واضحًا أنها تستدرجني وإلا لما اقترحت هذا التصوير العاري وأذعنت للمسات ربما قصدت فيها بدايةً إصلاح إطلالتها لالتقاط صورة.

ولكن لماذا بدا أنها قد ثارت ضدي ولاحقًا ابتعدت عني.

أنا أيضًا لست مثلية، كنت متزوجة وقضيت عمرًا مع رجل... بغض النظر عما كانت حياتي الجنسية معه.

لا أنكر أني أحببت كوني المسيطرة تمامًا في تماسي الجنسي معها، وكون خضوعها أمتعها وأمتعني، عكس ما يحصل عادة في مثلية النساء حيث يتبادل الطرفان الأدوار.

هل ما حدث اختبار لعلاقتنا الغضة؟

ربما تبادر هي مجددًا... أو أنها اتخذت موقفًا سلبيًا تجاهي ظنًا منها أني قد أسأت لها، وأن ما حدث كان غايتي منذ البداية. لكني يقينًا أنا ما خططت لذلك، تدحرجت الأمور بيننا وتناغمت حتى آلت لذلك اللحن الذي عزفناه سويًا على أوتار الشهوة والنشوة.

اتخذت الجانب الحذر المترقب، أزمعت هروبًا رغم انتظاري لها وترصدي لتحركاتها. هي تحديات أواجهها بقوّة وصمود، علّها تثمر قرارًا أو استقرارًا ونموًّا مستمرًّا مشتركًا. يختلط كلّ ذلك بتوتر، بتردّد حيال ما أقول وما أقدم عليه.

ينتابني خفقان شديد في القلب مرارًا، يمتزج بخوف من ذاتي، وممّا فعلته وما قد تؤول إليه حالي لاحقًا.

أيا خوفًا لم يفارقني؛ أَمِن نفسي أخاف، أو من المجتمع والمحيط، وأنا التي حسبت أنني تعاميت عن الخوف وتخطّيته بعد كلّ الذي جرى لي وكم الخوف والقلق الذي تعرّضت له في طريق الهجرة حتى خلتني استنفذت كلّ خوف يمكن أن يعترضني.

لكن خوفي اليوم مختلف، لو أنّني ما زلت في الشّرق لكان ذلك طامّة كبرى يجب طمسها. هنا الأمور أسهل وأكثر تقبّلًا. لكن هل ثمّة عقاب ما بطريقة ما، ينتظرني؟ لا يعجبني ما حدث كلّه، ولا أنكر متعة كانت أشبه بجناحين حملاني إلى حلم أو كابوس.

بعد أن مرّت أيّام عدّة وأنا في غياهبي ذاتها، لا أرغب برؤية أحد ولا حتى الاهتمام بالوقت، أصباح طلع أم شمس غربت، كلاهما سيان. أمضيت أيامًا ما بين فراشي وواجبات أؤدّيها، كثيرًا ما أهمل رنين هاتفي دون أن أجيب، أريد انقطاعًا وخلوة مع ذاتي، آكل وأشرب لِمامًا، يؤنسني البكاء مرّة وساعات طويلة من الصمت مرارًا. لم أتيقّن ممّا يزعجني حقًا أما فعلته مع 'ايلينا'، أم ضياعي أو «قلة الأخلاق» كما يعرف في عادتنا وديننا، أو لتمكّن شهوتي منّي، أو صدّ 'ايلينا' لي والخوف من بعدها.

بدأت بتوثيق وكتابة كلّ ما مرّ معي من أحداث وأفكار وذكريات على هاتفي، منذ طفولتي وقرّرت أن أواظب على ذلك.

كل الأسئلة تمرّ في ذهني؛ رفض 'ايلينا' لي هو الأكثر إثارة وأكثر ما يحرّض غضبًا عارمًا يضيق به صدري. أذكر كلماتها عندما كنّا سوية، وحديثها ووصفها لحبيب مفترض، تكاد تقتلني الغيرة والحقد عندما أتذكر حديثًا روته لي بلهفة عن رجل، نطقت بالقليل عنه لكن بدا جليًّا اهتمامها به.

في أعماق نفسي صراع من نواح شتى، وضياع في نواح مختلفة. ألجأ إلى الليل الساحر، كثيرًا ما أسامره حتى الصباح، حينًا على فراشي مقابل النافذة أو على الأريكة، وحينًا آخر أقفز وأفكاري، على الطرقات المجاورة أو على ضفاف نهر سبري، أو أتصفح واجهات المحال المغلقة وأسماءها.

بدأت بالخروج بين الحين والآخر من غرفتي من دون أن أطيل المكوث خارجًا، تلفتني الكثير من أماكن الإثارة والترفيه الخاصّة الموجودة في المدينة من دون أن أدخل أيّا منها، تبدو نابضة بالحياة بألوانها الساحرة وأصواتها المثيرة. مجرّد الاقتراب منها يتلاعب بأحاسيس المارّة، فكيف الحال بروّادها وزوّارها. ألحانها راقصة وإيقاعاتها غريبة، تعكس وجهات نظر مختلفة للمرح والتسلية.

في إحدى لياليَّ، نهضت من فراشي بإرادة قويّة على المضي قدمًا، وتنحية الماضي كي لا يكون عثرة في طريقي. أردت أن أنتزع ذاتي من ذاتي، أن أتقبّل كلّ الأمور، أعدو نحو مستقبل لي، أثبت لنفسي أولًا أنّي أستحق ما يعاكس الشفقة. أنا لست ضعيفة ولن تُنهني علاقة لم أفهمها، ولا نزوة مرّت على عجل كبّلت خياراتي.

أخذت حمّامًا سريعًا، غسلت فيه كل طاقة سلبية استوطنتني وربما أردت غسل عار تلك التجربة أيضًا. خرجت من غرفتي كامرأة تنثر شعرها متوسّط الطول فوق كتفيها، تاجٌ لجسد أردته أنثويًا. ارتديت ألوانًا مفعمة بالحياة تظهر مفاتن جسدي، وعهدًا منّي إليَّ أن أخوض تجربة مختلفة علّي أطلق نفسي أو ألجمها.

قرّرت الارتماء بحضن أوّل رجل يصادفني، أن أختبر دور المرأة مجدّدًا بعد هجراني أيّ علاقة مذ قتل زوجي. بعد أن أضعت بوصلة رغباتي وغفلت عنها، وجاء جسد 'ايلينا' العاري موقظًا.

وضعت أحمر شفاه، لم تكن المرّة الاولى بالتأكيد التي «أتحمر» ولكن في مصاف النادرة طبعًا، أكثرت من العطر، أطلقت شعري محرّرًا كما أردت لجسدي. وتوجّهت إلى إحدى النوادي الليلة.

في عالم النوادي الليلية، يتباهى كلٌّ بما يمكن أن يقدمه وما يمكن أن يحصِّله من متعة لا أعلم مدى ديمومتها. هي أماكن يسهل فيها إقامة علاقة عابرة من دون أدنى جهد يذكر، من دون أي التزام فعلي تجاه الآخر، في عالم صار المرء فيه يفرّ من أي التزام.

قصدت إحدى النوادي نادي بوشي BUSCHE Club في ليلة ظلماء ارتفع فيها مستوى الإحباط عندي، وكذلك الأدرينالين، علّي أحوّل اللحظات إلى ذكريات لا تُنسى في رحاب الليل، وأستبدل ذكريات مضت بأخرى، وربّما أستبدل 'ايلينا' حتى بآتٍ شهي.

دخلت الباب الرمادي ذا القنطرة، الذي يتوسط واجهة الملهى ذات الأحجار القرميدية بلونيها الأحمر والأصفر الباهت تعلوه نصف كرة شبيهة بالكرة الأرضية كتب عليها اسم الملهى.

كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل، ازدحام وموسيقى صاخبة، وألوان ساطعة تملأ المكان في الداخل وينعكس شعاعها على الجدران والوجوه، بكل ألوان قوس قزح. في الداخل أطياف شتّى من الناس والأشكال التي لا تخطر على بال بشر يشبه بعضها ما شاهدته في مسيرة حزيران الفائت.

ناظريّ يطوفان في المكان، أشكال غريبة حقًا، وأغرب منها طريقة وضع مستحضرات التجميل «المكياج» الذي لا

يستثني الرجال طبعًا. رجال متشبّهة بالنساء؛ بفساتين ضيقه وكعوب عالية يصعُب حتّى على المرأة انتعالها. شباب يرقص كالمجانين، حركات لاإرادية أشبه بنوبة صرع أو هستيريا. ورجال، ما قوم لوط منهم ببعيد، يأتون الرجال شهوة من دون النساء. سمعت أحدهم يبوح لشريكه وتلمع عيناه بالشبع والحماسة:

* عندما أمنحك نفسي، أشعر بأني ولدت من جديد.

ونساء شبه عاريات يتراقصن بإغواء. قبلة تطبعها إحداهن على فم أخرى، لوهلة رأيت وجه 'ايلينا' فهربت منه. كلّ الأمور فارقة هنا، لا وجود للعادي. فتاة تداعب خصلات شعر صديقتها وتقترب منها تهمس لها بغنج فيعلو ضحكهما، اعتصر قلبي مجددًا.

وقبل ان تسرقني 'ايلينا' من جديد وضعت يدي على جبيني أضغط عليه، علّي أضبط أفكاري قبل أن تسوقني إلى هواجسي وحزني فأخون عهدًا كنت قد قطعته لنفسي بالتعافي منها ومني.

وجدت نفسي أطلب كأسًا من نبيذ لا سابق عهدٍ لي به، ولكن لا بدّ من تجربته: يقولون إنّه يُنسي، يسرقنا لعالم آخر بعيدًا عن الواقعية المرة، ارتشفت كوبًا ثم آخر...

لم أعد أتذكّر الكثير؛ رجل يجلس أمامي أعاجله بغمزة وقبلة أرسلتها إليه من بعيد، أريد أن أعود إلى الأنثى، وأضبط ميولي، أريد استرجاع عهد كنت فيه شريكة رجل. فلربما

الحرمان العاطفي والجنسي أثار فيَّ شهوة غير منضبطة مؤقتة مع 'ايلينا'، أردت استكشاف ذلك.

أترك الصالة الصاخبة، وأدخل إحدى الغرف المحاذية لها، أثاثها أريكة مريحة يشكّل طرفاها زاوية قائمة تصلح لأن تكون سريرًا، ومقعدان آخران مقابلان وكأن الواحد منهما راحة يد جاهزة للإحاطة بمن يطلب احتواءً، أثاث باللون الأبيض النقي ربما ليعوض كل الإثم الموجود هنا، جدران الغرفة بلون قاتم، أحدها قد رسم عليه «ترددات ايكويلايزر» يعلو كلّ منها راقص أو راقصة، وعلى الجدار الآخر كتبت VIP بأحرف تشكلت من رسمٍ لراقصات وراقصين.

لم أكد أرمي بنفسي على الأريكة، حتى ظهرت 'فردفالد' من دون علمي المسبق بوجودها هنا، ولا أعلم إن كانت على اطّلاع بتجربتي لهذا النادي الليلة. بادرت بعبارات الثناء والتقدير والدعم العاطفي والمعنوي وأنّها بجانبي في القرارات الصعبة؛ قطع خلوتنا دخول ذاك الرجل، فخرجت تاركة إيانا، ثم أغلقت الباب على خلوتي به.

في صباح اليوم التالي استيقظت ودوار شديد أشعر به، جعل الدنيا وكأنها تلتف بي. قربي رجل شديد السمرة ذو شفتين غليظتين وملامح رجولية بارزة. للوهلة الاولى انتابني هلع، لأعود وأتذكر أشياء من ليلتي السابقة.

قام وحضَّر قهوة يدعوني أن أشاركه إياها مع هذا الصباح، فكسر حاجز الصمت بيننا وحاجز التردد عندي.

* كنت ثملة لا أدري ما حصل بيننا!

ـ قلّد طريقتي في الكلام، وبإفراط في ابتسامة ساخرة قال: ما يحصل لامرأة شبه عارية، مثلك حاليًا، بفراش رجل؟

نظرت إليه بتمعن؛ أريد أن أساله كيف رأيتَ الأنثى فيّ؟ أكنتُ راضية مستسلمة؟ تجاوبت معك؟ استسلمت أم طغيت؟ هل أحببت ما كان بيننا؟

يا لغبائي!

استجمعت قوتي متجاوزة رجفة اعترتني، اقتربت منه دون تردّد قاطعة الطريق على رجاحة عقلي أمنعه أن ينهاني... أغمضت عينيّ وقبلته فتبادلنا ما أردته شهيات قُبَل حارة، تاركةً له زمام الأمور، ولي عمق فهم مشاعري.

عزفنا سيمفونية جسدينا دون أن تكون فنًّا يدمج بين الروح والجسد، وكذلك من دون تجلّي لجمال أتذوقه وأستسيغه.

لم أهبه أيّ مبادرة مني، لم أشعر بنشوة لمس 'ايلينا' ولا سمعت لحن قلبي وعلو إيقاعه كما كان على منحنيات جسدها. ما كنت أنثى بحضرة رجل، وما شعرت أني ارتويت أو أدركت مبتغاي.

أمضيت بعض الوقت في فراشه باحثة عن الإجابة عمّن أكون أنا؟ ثم رفعت ثقل يديه، وعبء جسده عني، تركته ومضيت.

وفي طريق عودتي تعمّدت المرور بالقرب من منزل 'ايلينا' علّني أحظى بطيفها. رأيتها من بعيد في حديقة منزلها:

* أَرجلٌ ذاك الذي قربها؟ يعانقها؟ أَيا نائية المسافة: ضحكات وسعادة مرسومة على وجهيكما؟

ضاقت الدنيا عليّ، حزن ألمّ بي يقضم بعضي، ونار تَلَظّى. لمَ كلّ ذلك؟ لماذا أنا بالذات؟

عدت أدراجي إلى غرفتي ألملم خيبةً ووعدًا نكثت به بتجاوزها. نظرت إلى مرآتي التي تعكس لي بقايا امرأة تعيسة بلا وجهة بلا هدف بلا روح، والأهم من ذلك كلّه غير مدركة لجنسها.

دققت كثيرًا: أحمر شفاهي تمادى وتجاوز نطاق فمي، تذكّرت قبلات مختلفة. تنتابني نوبة جنون مخيفة، مسحت بادئ الأمر شفتيّ مرّة بعد مرّة مكررة ذلك عشرات المرات، محاولة بذلك مسح قبلات من ماضيَّ القريب، والبعيد، ولكن سدى...

لا تزال أنفاس ذاك الرجل المقيتة عالقة بأنفاسي...

بكيت وصرخت بصوت عال مرددة:

* أنت لست بأنثى تزهر في أحضان رجل! ولست حبيبة 'ايلينا' أنت! من تكونين؟

وجدتني أتناول مقصًّا أجزّ به شعري كلّه، خصلة تلوى خصلة، مسحت مكياجي بخشونة خدشت فيها وجهي، ضربت نفسي مرارًا وصفعتها؛ لم أستطع التوقف حتى لمحت دمًا يسيل؛ تسلّل إليّ رسم 'ايلينا' وذلك الرجل في حديقتها وآخر كنت برفقته ورسمٌ دمثٌ أو دميمٌ لي؛ ابتسمت وعلت ضحكتي:

دم... مسحته على ذراعي وصرت أكرّر:

سأقتلك بلا ندم....

10
الرسالة الأولى

ايلينتي

أرغب في التحدث معك بصدق ومن دون تحفظات. إن الذي ألمَّ بي هو عشقك الذي نزل على رحلة عبوري هذه، وصار دافعي ومحرّكي حتى صرتِ كلّي. ملكتِ الروح واستبحتِ الجسد حتى صار طيِّعًا لهواكِ. تسلّلت عبر ماضٍ لي: ربما انتقاني دون سواي من أترابي وقال فيّ شططًا، وظل جمرًا تحت رمادي اشتعل بحضورك. حاولت طمسه في درب جلجلتي، فتوقّد بحضورك في حاضر تُنمَّق فيه آثام شتى.

ندهتكِ، بحثت فيك وعنك في ذاتي، رأيتك في أحلامي وصنعتك غدًا أحلم به.

أتحبينني؟ أو من أكون أنا في حياتك أنت؟

هواك غيَّر حياتي وحالي وكياني، حتى وصلت إلى نقطة اللاعودة ربما، أشعر أنّ الأمور لم تكن كما توقّعتها. لقد أعطيتك قلبي بكلّ صدق، وقدمت ذاتي قربانًا لك، ولم

أحصل على الاستجابة التي كنت أتمنّاها. هذا يثير الألم والحزن في داخلي.

اعلمي معذّبتي أنني راهنت بذاتي ونفسي وما كنته، لأجلك.

لما كتب عليَّ أن أكون مادة الرهان دائمًا؟ كم تكرر ذلك في سنيّ عمري؟

أشعر أنني بحاجة إلى وضوح وصراحة من جانبك، هل تتقبلينني كما كنت أو كما أصبحت؟ وما هي الحال التي تنشدينها؟

ومن جانبي أنا بحاجة إلى وضوح وصراحة وفهم لذاتي.

أفضل أن نواجه هذا الواقع بصدق وأن نتعامل معه ببساطة، لا يمكننا بناء علاقة صحية إذا كان هناك عدم تقبل للذات أولًا، ثم لا بد من فهم طبيعة العاطفة والمشاعر بيننا، انتهاءً برسم تصوّر واضح للمستقبل وما سنؤول إليه، فيه.

أتمنى أن تقدّري صراحتي، وأن نتفهّم بعضنا البعض بصدق، لا تترددي في التحدث إليّ، لا بد من مناقشة أو توضيح أي شيء يتعلق بنا وفيَّ خاصة وما صرته حاليًا، وربما نحتاج لإعادة مناقشة أيضًا.

لا أنكر أني في صراعات ذاتية شتى؛ هل أخطأت ابتداءً، أو تسرّعت لاحقًا؟ أراهن عليك علنا ننجح في تخطي الكثير من الصراعات التي مررت وأمر بها، وكلّي رغبة في مشاركتك كل التفاصيل التي تتعلق بكلينا، لنخلق تفاصيل مشتركة وربما

نبدع في خلق أنفسنا من جديد في واقع نطمع أن يغمرنا بحسناته، ويعيننا على المضي قدمًا.

يثيرني عدم تقديرك للتضحية التي أقدمت عليها وقدمتها قربانًا على مذبحك. لقد بذلت الكثير من الجهد والوقت والعناية في محاولة أن أكون حلمك ومبتغاك، ولكن يظهر أن هذا لم يكن ملحوظًا بالقدر الذي تمنيته وتوقعته.

«آه من قيدك أدمى معصمي.. لم أبقه وما أبقى عليَّ».

أنا أقدّر أن العلاقات تتطلب تضحيات وتفانٍ، ولكن عندما يبدو أن هذا الجهد لا يُقدَر أو يُلاحظ، يصبح من الصعب عليّ المضي قدمًا.

أرجو أن تفهمي هذه الرسالة، أنا في فصام ونزاع نفسي، والآن أنا فارغ من كل المشاعر إلّا الألم... وحاجتي إليك.

يام

11

على ضفّة النهر، مقابل كاتدرائية برلين، أجلس على حافّة الجسر بمحاذاة عمل فنّي لمنحوتات برونزية، ثلاث فتيات متجاورات إلى يسارهن صبي. هذا الأخير واثنتان منهنَّ، يولون ظهورهم للأخيرة وينظرون إلى النهر باتّجاه الكاتدرائية وعلى خلافهم تدير الأخيرة ظهرها إليها. أتأملها في جلوسها؛ محنيّة الظهر والرأس، نظراتها حائرة وكأنّ همًّا أصابها. تسبل ذراعيها على فخذيها وتمسك يدها بالأخرى، مرتخية الأطراف، عارية القدمين من دون أن يلامسا الأرض، وقد ربطت شعرها الطويل صانعة منه جديلة.

تختلف طريقة جلوس هذه المنحوتات، إحباطٌ بادٍ على وجه هذه الأخيرة، لا بدّ أن الفنان كان يقصد نحت اليأس وانكسار الإنسان من الداخل، انعكاس ذلك يظهر جليًا على الملامح وحتى على طريقة الجلوس.

الحزن يُعجز الإنسان، يلوي روحه لا عموده الفقري فقط.

أقول وقد جلسَت بقربي منحوتة: «أيا جاثمة لو تشعرين بحالي. إني محزونة الفؤاد تشوبني بلبلة توقعني في قَلَق واضْطِراب وإرْباك وهَمّ، أيّ حال حالك»؟

هل الحب من النظرة الأولى حقيقة؟ وهل هو حكر على رجل هامَ بفتاة؟

أخفيت مشاعري تجاه 'ايلينا' أو لم أدركها تمامًا ربما، خوفًا من ذاتي أو من ردّة فعلها أو ردّة فعل محيطي الضيق، لا المجتمع الذي لا يولي لي أهمية هنا، أو على العكس تمامًا ربّما يكون داعمًا لي في بلد يقبل بالعلاقات المثلية، ولا يعتبرها محرّمة أو معصية.

لم أكن أعاني من اضطراب في هويّتي الجنسية بالمعنى الحقيقي، وإن كنت ميّالة لأكون المسيطرة وصاحبة الولاية لا الخاضعة. صحيح أنّ طفولتي ذخرت بتصرفات عديدة وُصفت بالصبيانية أو الذكورية والرجولية، وأني طالما أحببت قوّة الرجل وسلطته وحريته وامتلاكه الخيارات والقرار وزمام الأمور، في مقابل المرأة الخاضعة المستسلمة الحبيسة في سجن الرجل، والتي وإن خرجت من زنزانته لم تخرج من فلكه.

أنظر إلى الصبي التمثال على يميني وهو يحضن ركبته وينظر إلى النهر وأسترسل في هواجسي:

الرجل يعيش حياة حرة ومستقلة، بعيدة عن القيود والتقاليد التي يفرضها المجتمع على النساء اللاتي لا يجرؤن على الكشف عن مشاعرهن لأحد، خوفًا من الرفض والسخرية والعنف.

ربما لم أشعر أنّي ولدت في جسد خاطئ، بل في المكان الخاطئ. ربما لم أشعر أني أنتمي إلى الجنس الذكري، لكن يقينًا لم أحبّ الأنثوي، إن لم أكن قد كرهته أحيانًا، لا بذاته بل من باب ضعفه وشفقتي عليه.

يتحول العجز عن رفع الظلم، والشفقة على المظلوم، إلى رغبة بامتلاك القوّة والسعي للتحول إلى ذلك القوي المُهَاب المتسلط صاحب الأمر والفعل. تولِّد هذه الرغبة تقديسًا له، وتماهيًا به بمعنى التوحد والتشبه بشخصه وسلوكه وتعبيراته.

أنظر بعيدًا إلى الفتاتين الأخريين، قصيرتي الشعر، عاريتَي الصدر، إحداهما منتصبة الظهر واثقة المُحيّا، والأخرى تقعد بين الجلوس والاضطجاع، تبدو عليها العصرية والجموح حتى.

وكأني أشاركهما أفكاري: لم أجد الجرأة أو الفرصة لتحقيق شيء يذكر، في ظل العائلة والقانون والدين. على العكس من ذلك حصلت على الكثير هنا في بلاد اللجوء تحت عنوان الحقوق وهو ما كنت أعتبره امتيازات وطلبات قد تحتاج لثوراتٍ لتحقيقها. ربما تَرَف الحقوق هذه قادني لتجاوز ما هو مألوف أو طبيعي أو سوي، وما اعتبرته حقائق ومسلمات.

ما بال 'ايلينا' وحب 'ايلينا' لا يغادرانني، أهو حقًّا في مصاف الحبّ أو الترف غير السوي؟

أنَّى لهذه الحيرة والنزاع الداخلي أن يستقرّا، وأنَّى للخوف من العواقب أن يطمئن.

وفي خضم ما أفكر به ويجوب في خاطري، وما أخاطب به طيفها، قرّرت أن أواجهها بحبّي، أن أواجه ما حدث بيننا وأن أكون على محك تبيان الأمر وتوضيحه..

ها هو الغروب قد بدأ بمزج الألوان في السماء، لوحة فنية تنذر بالرحيل، لا زلت كسابق عهدي، أكره رؤية التهام الظلام للضوء وبالتالي لملامح وأركان الأمكنة. وفجأة وكأنّما طاقة لا توصف شاءت أن تجسّد أفكاري وتجمع بين شخوصي المحطمة، محطمة حواجز الزمان والمكان. وكموسيقى هادئة تمزج بين النغمات. أطلّت تتهادى بمشيتها، ضحكتها عزف يراقص قلبي، ها هي أمام ناظري من جهة الكاتدرائية بِطلّتها الآسرة، لمعت عيناي وخفق فؤادي، وكاد يتلعثم لساني.

وجدتها تقترب نحوي بابتسامة، حَرَكتها ملؤها عفوية وحيوية. وصلت ومدت يدها تصافحني، أخذت يدها بحنان، رحّبت بها بصوت مرتجف، تبادلنا أطراف الحديث. تتصاعد بضع كلمات منّي لتصل إلى حلقي تطلب عتقًا، أقيّدها ثم أعيدها وأحبسها من دون أن أبوح بها. أرمي أفكاري قبل كلماتي في غياهبي وديجوري، وبعد محاولات وأحاديث سطحية وعابرة، أنجح بعناءٍ ببوحٍ يؤرقني:

* لدي ما أقوله لك، لكن أرجوك أن تتفهّميني، ولا تحكمي عليَّ بسرعة.

ـ قولي، أنا صديقتك.

* ربّما تكونين مستاءة ممّا حدث بيننا، وقد أكون تجاوزت حدودًا ما، ممّا أحدث هذه القطيعة تجاهي، أو ربّما خاصمتني حتى غبت كل هذه الفترة السابقة.

ـ لا أبدًا لم أخاصمك ولم أقاطعك، كلّ ما في الأمر أني كنت خارج المدينة أغلب الوقت بسبب ضرورات العمل. وما حدث قد مرّ، كان وقتًا ممتعًا ومسلّيًا وقد انقضى، بغض النظر أنّي لست مثلية، ولا أمارس أفعال كهذه.

لفتني نزعتك للسيطرة حينها، وكأنّما مارستِ شيئًا كهذا باحتراف تقول ذلك مبتسمة:

ربما تكونين متحوّلة أو على طريق العبور.

كان ما سمعت أشبه بماء بارد سُكِب علي.

تقتحمني ذكريات ومشاهد ظننتها قد خلت. تتوارى هنيهة، فأشعر بإعياء يعيد إرهاقًا رافقني عندما كنت قد أنهكت نفسي بالتفكير بردّة فعلها ونظرتها تجاهي، وبحثي في أي علاقة قد تجمعنا، بينما هي لم تقف على كل ما حدث بأكثر من «كان وقتًا مسلّيًا وممتعًا وقد مرّ»

* 'ايلينا' أنا أحبك، لا أستطيع أن أشرح ذلك لأنّي لا أدركه تمامًا. أحبّك أكثر من صديقة، حبيبة؟ ربما! ولكن أريد أن أكون معك طوال حياتي.

ـ أنت جادة فيما تقولين؟ تحبينني بهذه الطريقة؟

* نعم، أنا جادة، هو شيء جديد بالنسبة إلي، خائفة ربّما، ولكن لا أريد أن أخسرك.

ـ لم أتوقّع حديثًا كهذا منك، لا أستطيع أن أتقبّلك أكثر من صديقة. صحيح أنّ ما حدث بيننا كان مسليًا وممتعًا، ولكنني أنثى مفعمة بأنوثة وعاطفة وحُبّ، أنثى تتكامل بِذَكر يتكامل هو أيضًا بها ليخلقا من كلٍّ منّا إنسانًا كاملًا مثاليًّا سعيدًا هادفًا. وكلّي يقين أني أريد الرجل الرجل.

لي حبيب وإن كنت في موجة خصام معه مؤخرًا. رجل وسيم يمتلئ ذكورة ورجولة، جسده رياضي تزيّنه عضلات توحي بالقوّة. هذا ما أريده بالفعل، قوّة أنعم بأمانها، وشراكة تحرّرني من كلّ عبء وهَمّ، ومن أيّ صعوبات قد تعترضني. أرى فيه اختلافًا يقرّبني إليه، أشاركه حبًّا، يشبع إحساسي برجولته لأشعر بفرط أنوثتي، وهذا ما لن أجده في أنثى. إني امرأة بكل معنى الكلمة مع كل احتياجاتها الطبيعية، امرأة بكل فطرتها تريد رجلًا.

صدمتُ بما قالت: لها حبيب!. لا بدّ أنها شاركته صورها العارية التي التقطتها لها، وأنا التي خيَّل إليّ أنّها تهتم بإعجابي بجسدها وإطراءي. تعجب المرأة بجسدها وتطرب لغزل يطاله، حتى وإن كان من أنثى.

ـ أجبتها: أرجوك لا تقولي هذا، ربما لن أعيش من دونك، أنا بحاجة إليك، أنا بحاجة لحبك، لقبولك، أنا بحاجة لدعمك.

* أيّ دعم؟

ـ دعم حتى أستمر بقربك.

أعيد مراجعة نفسي وذاتي ابتداءً من طفولتي وما حدث فيها، وميلي لشخصية الرجل الذي ما كنته سابقًا، ولكن قد أكونه.

أريد أن أستمر معك وقربك. أكون الشخص الذي تحلمين به، حتى لو كان الخيار أن أتحول لرجل، وأن أغيّر جنسي. سأكون فارس أحلامك، الرجل، الحبيب، وحتى الزوج.

* أرجوك استيقظي يا 'يم'، لا تدعي الوهم يشتّتك إلى هذا الحد، فإن تركته ولم تلجميه فحتمًا سينتهي بك الأمر تدميرًا لذاتك.

أتجدين من الصواب أن تحبّي امرأة من جنسك؟ أين سيأخذك هذا الحبّ؟ ما هدفه؟

وإن كان الطرف الآخر لك أنثى، صورة عنك بكلّ متطلباتها وأحلامها، أين متعة الاختلاف؟ علاقة طرفاها أشبه بانعكاس

بمرآة، سرعان ما يقتلها الملل. نسأم ذاتنا أحيانًا فكيف بذاتٍ أخرى تماثلها فتثقلها روتينًا؟

لذلك، إن كلامك ضربًا من جنون؟ هل تدركين ما تقولين؟ هل تهذين؟ أنت في يقظة أو في حلم؟

* 'ايلينا'، أنا لست مجنونة، ولكن ربما أحلم بغد آت أصنعه بنفسي ولها. أعرف أنّ ذلك صعبًا ولكن ليس مستحيلًا. مليء بالمخاطر نعم لكن ختامه مسك. أنشد فيه راحة، وسعادة، وأحقّق حلمًا بأن أمتلك نفوذ الرجل وشخصيته، إضافة لفوزي بحبك.

ربما أغيّر اسمي وشكلي وهويتي، سأواجه العالم بجرأة، لنعيش سويةً حياة سعيدة. لا تكوني مذهولة ومنبهرة، أنا أعي ما أقول، لن أتردّد رغم أنّ ذلك صعب ومعقد، ويحمل الكثير من المجازفة والتداعيات.

- 'يم'، ربّما لا أصدقك، أو ربّما لا أفهمك، ولن أوافق على هذا. لم أتوقّع أن أكون معك بهذه الطريقة، لم أفكر أن أكون مع رجل متحول جسديًا عن أنثى. ومن جانب آخر، أنا لديّ حبيب أحلم بمستقبل يكون هو دعامته.

* أرجوك لا تقولي هذا، أرجوك لا تتركينني. أتفهمينني؟ اقتربت منها أقبّلها، فقبلت وجنتي واحتضنتني.

كنا قد بدأنا بالمشي بمحاذاة النهر، متقاربتان، أفلتت يدي منّي تمسك يدها، فقالت:

ـ 'يم'، ربما كل ما حدث وسيحدث قد يكون وهمًا. التمادي في ذلك جريمة. يسعدني أن أكون بجانبك ولكن ليس بهذه الطريقة. أنا آسفة.

* لا تتأسفي، ولا تقولي لا أستطيع أو لا أحب، لا ترفضينني. أحتاج فقط دعمك. ما عاد بي قوّة لاحتمال كل ما قد مررت به في هذه الفترة القصيرة. خجل، خيبة، تشتت، كره لذاتي التي أريد العودة إليها. لا أفسر مشاعري تمامًا، ربما أنشد الوحدة والرحيل بعيدًا من نظرة الشفقة تلك.

ساد صمت طويل بيننا إلى أن وصلنا لمفترق طرق، ادَّعت أنها تسلك إحداها بينما كنت أفضل استكمال المشي بمحاذاة النهر.

قالت: سنبقى أصدقاء؛ هززت رأسي لا نفيًا أعني ولا قبولًا، بل ربما يأسًا.

لم أعد أشتهي إلّا الراحة، مشيت ومشيت ما قل عن الساعة بقليل، استعدت فيها شريط حياتي، طفولتي في ظل تفكك أسري ووالد خاوٍ من الأبوة.

أستعيد مشاهد تجربة الحيض الأولى، ظننت حينها أن ما أصابني من تغيرات جسدية اكتملت بنزف صرت على ميعاد

شهري معه، هو أقصى ما قد أتعرض له، وقمة ما ينتهك عمري وخصوصيتي وذاتي التي أصارعها.

وجاء ما انتهكت به 'نبال' طفولتي وبراءتي وبلوغي، وما تركت فيَّ من أذى وتأثير سلبي، بالكاد تجاوزته.

تلتها نوبة أخرى من الجنون اعترتني في أيام مراهقتي، عندما التقيت بشاب، يمر بالقرب من مدخل بيتنا أو ربما فعلًا قد خرج من بابنا. صورته تبدو وكأنّها مرت في مخيّلتي من دون أن أتيقن أين رأيته وفي أيّ ظرف. مشيته مشية واثق فخور. رأسه عالٍ وصدره مرفوع، يتحرك بخطوات ثابتة وثقيلة واثقة. مال إليّ عندما صرت بجواره ونظر إليَّ بتمعن، يبثني ابتسامات، ويراقب المكان بانتباه وكأنّه يبحث عن أحدهم ليختال بقربي أمامه. رمقته بنظرة بعد أن لاحظت حركة قد قام بها من دون أن أتمعن بها أو أفهم كنهها. ردَّد نَفَسَه في صدره بما يُشبه السُّعال الخَفيف لِتَنقية صوته، تنحنح وغمغم بكلمات لم أعرها اهتمامًا.

لم أعلم حينها تفاصيل لقائه بوالدي ولا تفاصيل اتفاقهما حتى أخبرني والدي بأنّه زوج مناسب ولا مناص من قبولي به.

فجأة ومن دون تمهيد وجدت نفسي في مواجهة حقيقية مع الزواج، ذاك الرابط الحتمي الذي لا بد منه في مجتمعنا. لا شك أن بعضًا من الزيجات ناجحة، ولكن لا تغيب الخلافات عن الكثير الكثير منها إن لم نقل جُلَّها، وصولًا للصدامات

التي، وفي بعض الحالات قد تكررت في قريتنا، انتهت بجريمة قتل تكون المرأة ضحيتها عادة، بعناوين وأسباب شتى، واليد الطولى فيها للرجل.

باختصار، حينها لم أشعر بأنّني مؤهلة نفسيًا وروحيًا وجسديًا للزواج، ولا أمتلك القدرة على التعامل مع زوج وزواج تقليدي. لكن ذلك كلّه لم يحل دون أن يُرتَّب لي زواجًا سريعًا، لا يخلو من كل التقاليد والأعراف الواجب اتباعها. ليس أقلها فستان الزفاف وهو نظريًا من الأركان الأساسيّة التي لا مساومة فيها عند كلّ أنثى، والمفارقة أني عندما جرّبته للمرة الأولى في سياق التحضيرات ولاحقًا عندما ارتديته في حفل الزفاف شعرت بنفسي غريبة عن أناي.

وفي ليلتي الأولى، في منزلي الزوجي الواجب أن يكون سكَني وسكينتي، أذكر أن تلك الليلة كسرتني.

خضت تجربة الاغتصاب بطريقة مختلفة. اغتصاب من دون أن يُرتكب في ركن خفي، أو زقاق مظلم أو حتى على عجل.

المعتدي ليس مجهولًا عنيفًا أو مسلحًا، بل مالكًا لي بطريقة أو بأخرى.

مسرح الجريمة آمن، ولا خوف من رصده أو ترصّده: فراش الزوجية.

والضحية...أنا.

لم أدرك معنى مشاعري وما أحسست به ليلتها. ربما راق لي دور المغتصِب السيد. دور من تكون له زمام المبادرة والتحكم، القرار والفعل، الأمر والنهي. هو زوجي...

تجاوزت الليلة الأولى ووجدت نفسي قد ألفت الحال التي أنا عليها. وما كدت أعتاد على بيتي الزوجي وأتّخذه سكنًا، حتى فقد الوطن مقومات السكينة، وأقحمت درب طريق الموت في هجرة غير شرعية فقدت فيه هذا الزوج. دربٌ، يراهن فيها المرء بكرامته وبحياته في سبيل العبور إلى الإنسان الإنسان الذي بتنا نطارده في أوطاننا دون أن يبلغ المرء منّا مناه ومنتهاه.

والآن... وبعد أن لجأت إلى ألمانيا ونلت قسطًا من حقوق واستقرار ورغبة في الاندماج بالمجتمع الجديد، أخوض بحار المثلية والعبور الجنسي.

وفي نجواي وشرودي هذا، كنت قد اتصلت بـ 'فردفالد' وهي التي طالما عرضت علي دعمًا ومساندة في كل حين وتحت أيّ عنوان. دعتني إلى مكتب الجمعية التي تنتسب إليها، ريثما تنهي عملها، وبعدها ننطلق سويةً. العنوان قريب من شارع موهلن Mühlenstraße، وكنت لا أزال أهيم في شوارع المدينة وفي ضياعي. مشيت أرباعَ ساعةٍ ثلاث من الكاتدرائية اتجاه الشارع بالقرب من جدار برلين حيث ستوافيني لتصطحبني. هناك المعرض الدائم في الهواء الطلق، رسومات

على أطول جزء باقٍ من الجدار، حيث يزيد طوله عن الكيلومتر على امتداد نهر سبري. سلسلة من اللوحات الجدارية المرسومة مباشرةً على بقايا طويلة من الجدار. استوقفتني لوحة عنونت بـ«رقص البحارة»، رسم مقلّد بإتقان عن «تشارلز ديموث» الذي رسم ثقافة المثليين الفرعية في نوادي الجاز والحانات تحت الأرض في مدينة نيويورك في أعمال احتفظ بها سرًا.

وقفت قبالتها، بالقرب من شجرة قد اجتثت من فوق الأرض فلم يعد لها من قرار. اللوحة الأصلية رسمت في بداية القرن الفائت، رسم لأربعة بحارة ذكور، على طرفي اللوحة اثنان من الرجال يرقصان مع النساء، بينما يرقص الاثنان المتبقيان مع بعضهما البعض في الوسط. يبدو البحار الموجود على اليسار عدوانيًا وعلى الرغم من أن شريكته في الرقص امرأة، يحدق نحو البحار المجاور له والذي يشارك حضن رجل، وانتباهه مثبت عليه. قرأت في اللوحة قصةً تُروى، ولكن جزئيًا لتترك لي ملء الفراغات. أتأمل تفاصيل ووجوه البحارة وتعابيرهم ومجمل ما تمثل. يتغازل البحارة الذكور بشكل صارخ مع بعضهم البعض.

شعرت بيدٍ تمسك كتفي وتشد عضدي، إنها 'فردفالد'، بعد التحية وتبادل أطراف حديث، مشينا سويةً اتجاه مركز الجمعية.

هو مكتب واسع أشبه ما يكون بنادٍ، الركن الأساس الإداري يعود ل 'فردفالد'، مع طاولة مكتب كبيرة بزخرفة لافتة، خلفها كرسي مصممة للراحة والاستدامة. وعلى سطح المكتب مجسّم للكرة الأرضية بغير ألوانها المعتادة لليابسة والماء.

'فردفالد' قدّمت لي المرشدة الاجتماعية في الجمعية:

* شريكتي «سوزانا».

تجولنا نحن الثلاثة في أركان المكتب وزواياه يطلعانني على تفاصيل المكان وخصوصيته وخدماته وإنجازاته وتاريخه.

في زاوية الغرفة نبتة خضراء كبيرة الحجم نسبيًّا وقد زرعت في وعاء صغير، تكاد يكون أصلها غير ثابت، لا تؤتِ أكل. وعلى الجدار لوحة بشكل هرم مقطوع الذروة يتوسّطها رسم عين، ملوّن بألوان الطيف.

كما يوجد مساحة لاستقبال الزوار، فيها أريكة ثنائية بلون زهري، أمامها طاولة عليها نبتة صبار، وتحتها سجّادة تكاد تخفي رموزًا مبهمة. وإلى الجدار توضع رفوف تحوي كتب متنوعة، وبعض الألعاب المتنوعة التي تخصّ الأطفال.

في ركن آخر، مساحة لإعداد المشروبات، وأخرى للتسلية والاسترخاء، وركن واسع خاص للعمل الإبداعي.

أخبرت 'فردفالد' بالذي جرى بيني وبين 'ايلينا'، أطلب منها نصيحة علّي أترك هذا الفراغ المستدير الذي أدور فيه. يخيّل

إليَّ أني أريد الابتعاد منّي، أخشى غدي ورغم ذلك أرجوه اقترابا.

تخط على شفتيها ابتسامة وتقول:

* نحن معك، لك منا كل الدعم.

بعد أن انتهينا من زيارة مركز الجمعية، دعتني 'فردفالد' إلى منزلها، قضينا وقتًا مسلّيًا لم يخلُ من قصص عديدة سردناها، تستمع إليَّ بتمعّنٍ وتفهُّم صادق لمشاعري وبخاصةً تجاه 'ايلينا' والمشاكل التي تعرّضت لها، من دون أن تصدر أحكامًا عليّ. تبسّط الأمور وتشجّعني على عدم كبت مشاعري، سواء بحبي لها، الأنثى للأنثى، أو حتى سلوك طريق العبور الجنسي إن أيقنت أني أريد ذلك. تبثُّ فيَّ تفاؤلًا وتأكيدًا على قيمتي كشخص وإنسان حر.

يجب أن أحترم مشاعري ورغباتي وأطلق لها العنان، كما يجب على المجتمع قبول ذلك ومنحي كلّ حقٍ لي.

* تقول: سأكون إلى جانبك في مواجهة التحديات والصعوبات، وكذلك جمعيتنا. يشاركنا الكثير من المعالجين والخبراء النفسيين نشاطاتنا، وعدد لا بأس منه من المستشفيات تقدم لنا خدمات صحية هامة. وأعضاء متمولون وصولًا إلى جمعيات أهلية وحتى حكومية، لنا اليد الطولى فيها، ولها في مدِّنا بكل حاجة نصيب.

ـ أجيب: أبدو الآن أفضل حالًا، أشكرك على كل شيء، كنت بحاجة لمن يسمعني دون أن يلومني أو يتّهمني بالخطأ، أو الضلال.

* سنكون دائمًا معك وستكونين لنا عَلَمًا.

ستقضين الليل عندي اليوم، وغدًا يوم جديد.

وفي زلفة من الليل، وفي أحد الأروقة في المنزل، حيث أمشي وحيدة التفت يمينًا ويسارًا، أصبح في مواجه باب مغلق، كتب عليه «ممنوع الدخول». شعرت بالاستفزاز من هذا المنع، وكنت قد امتلأت بالتحدّي والجرأة. فقررت أن أفتح الباب وأكسر كل قيد. استخدمت مفتاحًا وجدته في يد 'فردفالد' التي ظهرت فجأة قربي، ساعدتني في فتح الباب من دون أن تدخل معي.. وراء الباب غرفة كبيرة، مظلمة، مليئة بالتوابيت والعظام والدماء. في وسطها، ما يشبه عرشًا مزخرفًا، عليه جثة رجل، أنيابه بارزة حادة، وعيناه حمراوين. إنّه دراكولا دون أدنى شك، ملك مصّاصي الدماء، احتضنني بقوّة ثمّ غرز أنيابه في رقبتي طويلًا، لأجد نفسي قد تحوّلت لرجل ذي لحية سوداء. أنظر إلى أعضائي التناسلية وقد تبدّلت.

راقت لي الذكورة هذه كثيرًا وأسعدني ذلك وإن شعرت بقلق. ندَّى العرق جبيني وبدني حتى كاد يغرقني. أُغلِق الباب على كلينا، بعد أن أصدر صوتًا مفزعًا.

فتحت عينيَّ مرعوبة، تململت، وإذ بي في مكان لم آلفه، أنا لست في غرفتي في مركز الإيواء. لا أزال في السرير في منزل 'فردفالد'.

لقد كان حلمًا، يا إلهي...

أمسكت هاتفي المحمول، صديقي اللدود، بحثت عن تفسير هذا الحلم وقد امتلأت صفحات الانترنت العربية بتفسير الأحلام، ابن سيرين على رأسهم، وهو الأكثر شهرة. أجد تفاسيره بسرعة:

تحوّل الفتاة إلى رجل في المنام يدلّ على حصولها على القوة والحماية والدعم، وعلى تيسير الأمور المتعسرة وزوال العراقيل أمامها.

وإذا رأت أعضاءَها التناسلية تتحول في الحلم فهذا يدلّ على قرب موعد زواجها أو خطوبتها.

واللحية في المنام تدلّ على زيادة في العز والجاه. وسعادة الفتاة بتحولها إلى رجل في المنام يدلّ على تحقيق مرادها ووصولها إلى ما تطمح إليه.

جاء تفسيره على هواي، وأعطاني دفعًا في ظل دعم 'فردفالد'، وثورتي مع 'ايلينا'.

في الصباح، جلستُ و'فردفالد' إلى شرفة الغرفة نحتسي فنجانًا من «النسكافيه» ونأكل قطع «الكرواسان» المحشوّة

بالزبيب. أطلعتها على حلمي وتفسيره حسب ثقافتنا وتأويلات مفسري الأحلام.

* قالت: بعيدًا من علاقتك بـ«ايلينا» وما مَزجَت وشجَّت في ذاتك، ربما تكونين فعلًا من أولئك الأشخاص الذين ولدوا على طريق العبور، عبور التصحيح الجنسي كي لا نقول التحوّل الجنسي. ألم تكن لك مشاعر وتصرفات ذكورية؟

كنتُ قد وضعتُ راحة يدي على ذقني تسندها، وأصابع يدي على وجهي، وأَجَلت طرفي حتى جمد في البعيد وقلت:

ـ أذكر أني لم أكن في طفولتي أفضّل جديلة الشعر ولا الفستان. وكنت أحب ركوب الدراجة ولي باع بإصلاحها. وتشعرني القوة والتسلط بالنشوة و...

* هذا واضح إذًا، لديك عدم التطابق بين الجنس المحدد عند الولادة والشعور بهويتك الجنسية.

أسالك وأرجو أن تكوني صريحة، هل من ذكريات جنسية عن طفولتك؟

أصمتُ وقد شعرت بكلمات كادت تتجاوز حلقي. ربما أذكر شيئًا من هذا القبيل، تطل 'نبال' من ثنايا وطيات الذاكرة. الاعتداء الجنسي في مرحلة المراهقة من شأنه أن يزيد من احتمالية الشذوذ الجنسي عند الضحايا، كردة فعلٍ عكسية على الجنس المعتدي، بحال كان مغايرًا أو مماثلًا.

* تكمل 'فردفالد' ما بدأت به: إذًا، عليك فهم ذاتك كرجل، وبناءها على هذا النحو.

هل كانت علاقتك سوية بزوجك، وقد علمت أنك تزوجت سابقًا؟

ـ كان بيننا خلافات عدة. وكنت أمقت حصر نشاط وإنتاجية المرأة في كونها ربة المنزل أو الأم، التي لم أكنها.

أكره أعمال التنظيف والبقاء في البيت بانتظار قدوم «السيد» ذي الأمر والنهي. أميل لأكون ذات شخصية مستقلة مسيطرة نافذة، وهذا جزء من الشقاق الذي كان بيني وبين زوجي.

وحتى في علاقتنا الحميمة كان لي وجهات نظر.

* هذا واضح، لأن هويتك ذكرية ربما لا أنثوية.

وتستفيض قائلة: تعتبر قضايا الهوية الجنسية والجندرية من المواضيع المعقدة والحساسة التي تتطلب التعامل معها بحرص وفهم عميق. فالهوية الجنسية والجندرية هي تجربة شخصية فريدة لكل فرد، ولا يمكن تعميمها أو وضعها في قوالب محددة.

من المهم أن نتذكر أن البشر كائنات معقدة ومتنوعة، ولا يمكن اختزال هوياتنا إلى مجرد الجنس البيولوجي. فالهوية الجنسية هي الطريقة التي يشعر بها الشخص تجاه جنسه، بينما الهوية الجندرية هي الطريقة التي يعبر بها الفرد عن نفسه من حيث السلوكيات والملابس والأدوار الاجتماعية.

يجب أن تخرج من قفصك شيئًا فشيئًا، (وقد بدأت تحدثني بصيغة المذكر)، تخرج من محبسك في هذا الجسد الأنثوي وما فيه من قيود لتكشف عن جناحيك الحقيقيين القويين لتصبح كالنسر الألماني[1]، ستمتلك جناحين يمثلان الروح الحقيقية والحرية لك. في طيرانك، تخلّص من كل الأقنعة وحرر روحك. شكل سربًا جديدًا مع من يشبهك، سربًا يمثل التنوع والقبول، سربًا ستكون فيه القائد. ما رأيك بـ Squadron Leader؟[2]. حلق عاليًا في السماء، تاركًا وراءك ظلال الماضي. في هذا السرب الجديد، ستكون ومن سلك دربك، مصداق الإنسان الحر الذي يحلّق في سماء لا يحددها زمان أو مكان. الحرية المطلقة هذه، هي الحاجة الوحيدة المطلوبة للتحليق وهي الطاقة التي لا تنفذ للاستمرار. أن نبحث عن الذات الحقيقية ونحررها من القيود، أن نكون ذواتنا كما هي ونتجاوز الأحكام الخارجية، ونحترم التنوع والاختلافات بين البشر.

إنها رحلة النضال والتحرر من أجل العيش الحقيقي.

---

(1) يظهر النسر الألماني عادةً في شعار البلاد والعديد من الرموز الوطنية الأخرى. يُعتبر رمزًا وطنيًا للبلاد.

(2) SQNLDR هي اختصار لـ «Squadron Leader» وهي رتبة عسكرية تُستخدم في سلاح الجو الملكي البريطاني (RAF) وسلاح الجو في بعض دول الكومنولث البريطاني الأخرى.

للحظة مرّ في ذهني كلمات طالما سمعتها في القرية خاصتي وحتى المدينة؛ «حسن صبي» و«بنت مسترجلة» «كل زوجين بيتخانقوا». هي عبارات ألفناها في صغرنا أم هي اضطراب هوية جنسية.

يا لغبائنا إنه اضطراب فيزيولوجي وأيديولوجي كبير، و«جندر ديس أوردر»، ونحن نمر عليه بعفوية. صحيح أن «الأجانب» سبقونا بأشواط.

ـ أتوجه مجددًا إلى 'فردفالد' أريد أن أخبرك:

إن الذي أنا عليه الآن هو ما نما وتأصل فيَّ مع كل أسى مررت به وترك أثرًا فيَّ، ومع ألم كبير أَلَمَّ بي وحرقات قلب وغصّات حزن أصابتني. عبرني كل ذلك وأقام فيَّ.

منذ صباي، شعور باختلافي عن أقراني لازمني، كثيرة هي المشاعر الغامضة والغريبة التي لم أفهمها أولًا، ثم لم أستطع التعبير عنها خوفًا من الرفض أو السخرية. كنت أخفي مشاعري خلف ابتسامة خجولة أو صمت. أتظاهر بالسعادة بينما كنت أعاني في داخلي من التوتر وعدم الرضا.

والجدير بالذكر، أنه في طريق هجرتي غير الشرعية إلى ألمانيا وبسبب ما كنا نتعرض إليه من ظلم وتهديد، أشار إليَّ أحدهم أن أرتدي زيًا رجاليًا، ففعلت، وبالفعل، خلعت لباسي واستبدلته بلباس آخر مختلف تمامًا، ذكوري، وهذا ما خلق نقطة تحول حقيقية عندي. شعرت وكأني صرت مختلفة... كأني وجدت ذاتي.

* كلّ شيء يؤكّد دون أدنى شك، أن ذاتك مختلفة عن جنسك الذي ولدت فيه، إن ذلك مرتبط بـ مورثات وجينات. لدي الكثير من الأصدقاء المثقفين والمختصين يفيضون تسامحًا واحترامًا وتعاونًا، يملؤهم حبّ الخير، يسعون للمساواة بين جميع الناس. سيكونون عونًا لكَ في إيجاد ذاتك، وبدء حياة جديدة زاهية، والحصول على عمل مرموق تكون فيه ذا نفوذ تستمده منّا ومن جمعياتنا.

مرّ في ذهني حديث 'سامي' عندما كنا على ضفاف النهر قبالة جزيرة المتاحف؛ وما قال عن نفي العلم أيّ سبب جيني مرتبط بهذا. يا لغبائه أيضًا.

ـ أراكِ تخاطبينني بصيغة المذكر!

* أخاطبك كذكر، لأن هذا حقك، وقد سلكتَ فعلًا طريق العبور.

ـ للحظة انتابتني نشوة ورهبة، خوف وأمل. نصبت ظهري وأخذت نفسًا عميقًا. نعم هو كذلك: هنا تأتي إلينا حقوقنا قبل أن نسعى لها.

تُجحفنا أوطاننا دون أن تؤرقها دموعنا التي تسقي جفاف هذه الأرض. تقسو علينا، تستفيض في الإضرار بنا حتى تهلكنا، تستبد بنا لتنتزع منّا رمق الحياة وبقية الروح.

أيّ نعيم نحن فيه في بلاد «الأجانب والغرب».

* سنتواصل مع أشخاص مرّوا بتجارب مشابهة. وسيكون لك أصدقاء وصديقات، وحبيبة حتى، وربما زواج رسمي قانوني وهو ما صار مشرعًا في الكثير من الدول.

كنت أستمع إلى كلامها، ألهو بقلم أرسم فيه خطوطًا ودوائر وأحرف حتى كتبت اسمي:

Yam

* سألتني: هو اسمك صحيح؟ كيف يلفظ عادة؟ يم أو يام. ما رأيك باسم جديد لك: جيم، جيمس.

ـ أحسست بجيمس بوند، العميل السري البريطاني، يربت على كتفي. وجيم كاري، الممثل الكندي، يمسك بيدي، يكاد يعطيني «القناع The Mask» الذي حوله من موظف بسيط يعيش حياة مملّة رتيبة، إلى من يملك قوى خارقة لحل مشاكله ومواجهة الأشرار.

* وضعَت يدها على ظهري ودلكت رقبتي وكتفيَّ.

سيكون لنا موعد قريب مع استشارة نفسيّة يقدّمها مركز ملحق بجمعيتنا، خبير ومعالج وطبيب نفسي.

وفي سياق قهوتنا الصباحية هذه، وتبادل الحديث والقصص، كانت 'فردفالد' قد استكملت ما قد روته لي في مناسبات عدة من مقتطفات وأحداث من سيرتها الشخصية،

خاصّة فيما يتعلق بإحدى صديقاتها وزميلتها في الجمعية، 'سوزانا'.

كانتا قد تقابلتا بداية في حفل صغير نظمته إحدى الفرق الموسيقية المحلية حيث كانتا تعيشان في «ستارغارد» وهي مدينة صغيرة في ريف بولندا، قريبة من الحدود الألمانية.

'فردفالد' التي عاشت وحيدة مع أمها بعيدًا من أبيها بعد انفصالهما نتيجة خيانته المتكررة لها مع كل من استطاع إليها سبيلًا من النساء في علاقات عبثية متكررة بعضها مع نساء عابرات، وأخريات عاهرات ومنهن من اجتمعن معًا على اضطراباته. وهذا ما ولّد لها ولوالدتها نفورًا من الرجال وصورة مقيتة عنهم، أساسها الأنانية وعدم الوفاء، حتى لطالما سمعت من والدتها اختصار أبيها بـ«غريزة حيوانية».

أما 'سوزانا' فقد كانت وحيدة لأبوين ثريين، عاشت جزءًا من طفولتها من دون أبيها الذي اعتُقِل بسبب نشاطه السياسي في حركة «تضامن» البولندية المناهضة للشيوعية والاتحاد السوفياتي في الثمانينات. قضى حينًا من الدهر في سجن سياسي معزول، فيه تعرض للاغتصاب من سجّانيه الذين قضوا جل حياتهم لا يرون طيف امرأة حتى لم يجدوا بدًّا من أن يقضوا بالرجال وطرًا وهذا ما انسحب أيضًا على السجناء، ألفوا علاقة كهذه حتى طابت لهم. خرج من السجن السياسي مضطربًا، وكثيرًا ما يردّد: هو صراع الشيطان الأكبر الديكتاتوري مقابل الملاك الديمقراطي.

بعد مغادرته السجن، دون أن يغادره الأخير، كانت علاقته مضطربة مع زوجته وبطبيعة الحال مع سوزانا ابنته. زوجته التي عانت من رهاب الازدحام، وهو اضطراب نفسي يخشى فيه المريض من الازدحام ويتحاشى الناس. كما كانت تشعر بالرهاب الاجتماعي، القلق من أن يبدو أداؤها أو كلامها وتصرُّفاتها غير مناسبَة. وهذا ما وضعها في عزلة ووحدة.

«سوزانا»، قضت سنوات طفولتها الأولى دون أبيها أولًا، ثم معزولة اجتماعيًا بسبب مرض أمها النفسي التي فرضت عليها عزلة وبعدًا عن المجتمع والناس وحصرت علاقتها بصديقة واحدة فقط، من عائلة فقيرة جدًا، تكاد لا تختلط بغيرها. هذه الأخيرة رضخت واستسلمت لها تحت إغراء المال الذي قايضت به فقرها وجسدها.

بعد تلك الحفلة الموسيقية التي جمعت 'فردفالد' و'سوزانا'، واجتمعت كذلك آهات طفولتيهما وانعكاساتها على تنشئتهما النفسية والسلوكية. ما لبثا أن تقاربا، 'سوزانا' التي تعمل كمدرّبة رقص، و'فردفالد' التي تحبّ الرقص وتتدرب على بضع رقصات في الثانوية، سرعان ما أصبحتا صديقتين حميمتين. لم يكن سرًا، أن هناك علاقة عاطفية تتطور بينهما. بدأت الشائعات تنتشر في البلدة، وبالتوازي معها ضغوط اجتماعية وعائلية عليهما. ومع ذلك، قررتا البقاء معًا ومواجهة التحديات سويةً. ونتيجة لذلك، قررتا بعد مدة زمنية

ترك البلدة والانتقال بعيدًا. كانت برلين الوجهة، والانفتاح على المثلية طريقهما. هناك، وجدا دعمًا أكبر وبدآ بناء حياة جديدة معًا.

التحديات والصعوبات التي واجهتاها في برلين أقل بكثير مما كانا عليه وعلى العكس تمامًا، وجدا الكثير من الدعم والتشجيع. وبناءً على ذلك انتسبتا لإحدى الجمعيات المؤيدة التي تتبوأ فيها حاليًا فردفالد مناصب.

وفي برلين ومع 'فردفالد' وجمعيتها لمست أنا أيضًا هذا الدعم والتشجيع بنفسي، وبخاصّة على مستوى الجمعية الراعية. وقد مرّت أيام قليلة على نزعتي في التحول إلى رجل، والقرار الذي اتخذته و'فردفالد'.

كنت قد بدأت في تغيير شكلي الخارجي، ولم أجد أدنى صعوبة في ذلك، أصلحت قصة شعري لتصبح ذكورية أكثر بعد أن كنت قد قصصت خصلات منه، واعتمدت إطلالة ذكورية في الملابس. كما هجرت مشية الأنثى وترنحاتها، محاولة التشبه بمشية الديك ربما. وحاولت تفخيم صوتي عندما أتحدث، وقد دأبت على تأمل وملاحظة خفايا ذلك عندما أسمع صوتًا يضج رجولة، وكذلك صرت أقتفي أثر الأحاديث الذكورية وإن اختلف فحواها بين العرب والغرب. صرت أتوقف عند عبارات ومواقف وكأني ولدت من جديد وبدأت تعلم وإدراك التفاصيل اليومية في كل شيء من وجهة نظر رجولية.

أتوجه إلى شارع العرب في برلين Sonnenallee في منطقة Neukölln وإن كان تاريخه قد بدأ ما بعد الحرب العالمية وقبل قدوم العرب، ولم يكن مرتبطًا بهم ولا كان هذا اسمه. ارتبط بالعدد الكبير من المهاجرين الأتراك الذين قدموا إلى المدينة بحثًا عن فرص عمل. ثم استقروا وجلبوا معهم تراثهم الثقافي ومأكولاتهم الشهية. تأثر الشارع بتلك الثقافات المتنوعة وأصبح مركزًا للتبادل الثقافي والاجتماعي وواحدًا من أبرز الوجهات الثقافية والتجارية في المدينة، لا سيّما بعد ازدياد أعداد العرب وبخاصّة المهاجرين السوريين.

يشتهر هذا الشارع النابض بالحياة بمجموعة متنوعة من المطاعم العربية اللذيذة والسوق الحيوي الذي يعرض المنتجات الشرقية الأصيلة.

بدءًا من ميدان هيرمان بلاتز Hermann Platz وعلى مسافة ممتدة حوالي 2 كيلومتر، واظبت على السير لعدّة أيام، أراقب المارّة وألتقط أطراف حديثهم.

* يسرد صاحب حانوت بطولاته:

عندما حاول أحدهم نشل حقيبة يد تحملها شابة، تدخلت بشجاعة وأنقذتها. شكرتني قائلة: شجاعتك ودفاعك عن الحق موقف شهامة. دائمًا ما يعطف الشهم ويساعد الآخرين.

آخر يحتضن زوجته الحامل ويمسك يد طفل في يده الأخرى. اعتصر قلبي دون أن أجد تفسيرًا لذلك.

اتابع تجوالي وأدخل «مقهى أم كلثوم» وهو أول مقهى عربي افتتح في الشارع قبل انتهاء الألفية الثانية بعامين. هي المقاهي العربية التي تتميز بأجوائها الاجتماعية الدافئة والمريحة، حيث يجتمع الناس للتحدث وشرب القهوة وتناول المأكولات. تعتبر ملاذًا للتفاهم والحوار وحتى الصراع، تطرح وتعالج أعقد المسائل العلمية والاجتماعية والثقافية والسياسية، مع غير ذوي الاختصاص والمعرفة غالبًا. وأحيانًا تكون مركزًا للأنشطة الفنية والأدبية الحقة.

استقبلني النادل قائلًا: تفضل تفضلي، بابتسامة ساخرة، واضح أنه قد التبس عليه هويتي الجنسية.

طلبت نرجيلة، تشكرت النادل فأجابني: «أحلى نرجيلة لأحلى صوت».

صوتي أنثوي بشكل جلي، وتكوين جسدي كذلك وإن كان ممتلئًا وضخمًا قليلًا. رغم ما ألبس من أزياء رجالية، ومحاولتي تقليد حركات وتصرفات الرجال.

أدخن النرجيلة، واسترق السمع وتصلني الأحاديث من دون أدنى جهد في ظل ارتفاع أصوات المتحدثين:

* يقول أحدهم بكبرياء: وعدت جاري وعائلته، ولن أخلف وعدي. سأستجمع قواي وإمكاناتي وأكمل ما بدأت وسأفي بما وعدت. الوفاء بالوعد مهما كانت

الظروف، وتحمّل المسؤولية تجاه الآخرين من شيم الرجال.

بضع رجال آخرون يسردون سيرة رجل عصامي، مَن شَرُف بنفسه لا بآبائه، وبكدِّه وكفاحه واجتهاده لا بما ورثه.

استطاع تأسيس مشروعه الخاص الذي وفّر فرص عمل للعديد من الشباب.

* عمله الجاد كان طريق النجاح وتحقيق ما قد يكون حلمًا. هو الرجل الرجل حقًا.

وعلى جانب آخر من ذلك، يحتدّ حوار بين من يجلسون إلى الطاولة القريبة مني يتحدثون عن ختان الإناث، اللكنة المصرية حاضرة، كنت قد ألفتها وألفها كلّ العرب وأحبّها من خلال السينما والمسلسلات التي كانت حكرًا على مصر لا من باب احتكار إنتاجها ولكن من باب تفوّقها. وآخر كلّما خاطب جليسه قال يا «زول» وهي كلمة سودانية سمعتها كثيرًا من مهاجرين التقيتهم.

* يستهل الحديث: ختان النساء ممارسة دأب عليها أهلنا وأجدادنا، ولا داعي لترك ما نهج عليه السلف.

ـ يعلّق آخر: هي قضية صحية واجتماعية مثيرة للجدل ولكنها تحافظ على الأنثى من الانحراف.

* يضيف آخر: يتسبب الختان في مشاكل صحية ونفسية للنساء، وفيه من الظلم وانتهاك خصوصية وحقوق

المرأة الكثير، وترسيخًا لدونيتها واضطهادها، وهي من التقاليد الثقافية البالية وغير المرتبطة بالدين، والتي يجب التوقف عن ممارستها.

أنصت إليهم وكأني أستعيد في ذهني تاريخ مظلومية المرأة وضعفها، منذ ما قبل قرار مجمع فرنسا سنة 586م: أنَّ المرأة إنسان لكنَّها مخلوقة لخدمة الرجل.

وتاريخ حزام العفة الذي أخترع في إيطاليا واستعمل في زمن ما في أوروبا، لفرض العفة على النساء من قبل أزواجهن أثناء غيابهم لفترات طويلة. وهو حزام معدني ذو قفل يشكّل رمزًا للسيطرة الذكورية وانتهاك لحقوق المرأة.

ظلم، عنف أسري، تمييز في العمل والزواج المبكر، ختان...

قائمة لا تنتهي. أشعر بشفقة تجاه الأنثى...

وذلك في مقابل قوّة الرجل وشهامته ونجاحه وسطوته.

لم رُسم هذا الشرخ بين الرجل والمرأة؟ كيف زين للرجال تفوقهم وصبغت المرأة بالضعف والخضوع والعار؟

12

تتالت الأيام وكنت قد بدأت أقلّد الرجال بعد ان اتّخذت قرار التحول دون تراجع، وأعلنت ذلك على نطاق ضيّق، وهذا ما وضعني في مواضع محرجة ومؤلمة في تماسي مع المحيط في مراكز الإيواء واللجوء حيث الغالبية من أهل الشرق، التمييز والتنمر والعنف والإهمال صار خبزي اليومي بعد أن بدأ يشيع خبري. وحتى المجتمع في الخارج لم يكن استثناء لما أتعرض له وإن كان أقل وطأة.

أشعر بالقلق والتوتر وأحيانًا بالخوف، أعرِّف عن نفسي كرجل وصوتي وشكل جسدي يوحي بأنوثة رغم تصنّعي.

حتى أوراقي الثبوتية، عندما أظهرها، يُكثرون التدقيق فيها وفيَّ.

ذلك وأشياء أخرى أصابتني بالإحباط قليلًا، فقررت الابتعاد عن مراكز الإيواء وعن 'سامي' و'سلمى' والجميع.

كنت وإحدى زميلات السكن نتشارك فرحة الطهي والاستمتاع بإعداد الوجبات معًا. بدأت مؤخرًا تظهر علامات من الازدراء تجاه طريقة الطهي خاصّتي. وكأنها تبحث عن أي

فرصة ومناسبة لمهاجمتي والتقليل من شأني. في البداية، قد تكون هذه العلامات غير ملحوظة بدايةً وكنت أتجاوزها، مثل التعليقات الخفيفة أو البسيطة حول الوجبات، ثم إعادة غسيل كلّ الخضروات والأطباق التي ألمسها وكأن بي قذارة أو نجاسة. ومع الوقت، صار كل شيء أكثر وضوحًا، مما أدى إلى توتر في العلاقة بيننا حتى القطيعة، لا سيّما بعد محاولة تأثيرها على 'سامي' و'سلمى' وتكرار نصحها لهما بعدم مشاركتي الطعام وحتى الابتعاد عنّي كليًا.

وبالفعل تجافينا، ابتعدت عن مراكز الإيواء وعنهم جميعًا. حصلت على سكن آخر بمساعدة 'فردفالد'، مسكن مريح وجميل والأهم من ذلك كله، أجد الكثيرين من مثلي وحالي، من مثليين أو متحوّلين أو على طريق العبور.

كنت أقضي وقتًا في الصالة الرياضية الكبيرة المتوفرة مجانًا لنا، الرياضة راحة نفسية، تسكب هدوءًا نفسيًا عليّ. بدأت في تدريب رياضي مكثف لبناء عضلات وتحصيل قوة جسدية.

لا بد من نحت جسم رجولي بديلٍ عن انحناءات جسد الأنثى، ولاحقًا سيساهم العلاج الهرموني بذلك، والذي قد أبدأ به قريبًا. سيعيد توزيع الدهون في جسدي بشكل ذكوري، تخف من الوركين والثديين والأرداف لتظهر في البطن والظهر والكتفين. كما يساهم في تغيرات في العضلات والقوة حيث تزداد كتلة العضلات في الذراعين والساقين والصدر، إضافة

لما أعمل عليه أنا من خلال تقويتها وصقلها وتحصيل لياقة بدنية من خلال المواظبة على الرياضة.

قد يكون غياب قوتي الجسدية، المطلوبة في الكثير من الأعمال «الذكورية» كالنجارة وتصليح السيارات مثلًا، ذريعة في فشل محاولاتي الحصول على عمل. لم أكن محط ترحيب في الكثير من أمكنة العمل.

إحدى المرات التي حاولت الحصول فيها على عمل، عندما تقدمت لوظيفة في إحدى الشركات الكبرى، لحاجتها لبعض الوظائف المكتبية والإدارية، مع علمي أنها غالبًا ما تفضل توظيف النساء في المناصب الإدارية والسكرتارية وإدارة المكاتب.

تم استدعائي لإجراء مقابلة شخصية. كان حماسي ظاهرًا للغاية وكنت آمل أن أترك انطباعًا جيدًا، علّي أحصل على هذه الفرصة التي حلمت بها.

عندما دخلت قاعة الانتظار، عرَّفت عن نفسي كذكر، وملامحي فيها لمسات أنثوية تتناغم مع بروز ثديي، وبعد أن عرضت أوراقي الثبوتية التي تثبتني في خانة الأنوثة. أحسست بنظرات الازدراء والسخرية من بعض الموظفين وآخرين كانوا ينتظرون في المكان أيضًا. كان أحدهم يهمس في أذن الآخر ويشير إليَّ بطريقة مهينة، كما لو كنت محور هذه الوشوشة. هو كذلك؟ أو أني أتوهم أن كل همس يستهدفني؟

بعد انتظاري وقتًا وجيزًا، استُدعيت إلى غرفة المقابلة، أحاول أن أظهر ثقتي بنفسي، لكن أحد أعضاء لجنة المقابلة كان يراقبني بنظرات ساخرة، ويسألني أسئلة محرجة وصعبة بطريقة متحدية. خلال المقابلة، كان أحد الموظفين الآخرين يدخل ويخرج من الغرفة باستمرار، مما أثار إرباكي وشتت تركيزي. كنت أشعر بأن هناك محاولة متعمدة لإفشالي، وللتفرج عليّ. أو أنه خُيِّل إليّ.

في نهاية المقابلة، شعرت بخيبة أمل كبيرة، لكني حاولت أن أحافظ على هدوئي وأدبي. عندما غادرت المبنى، سمعت بعض الموظفين يضحكون ويتبادلون النظرات الساخرة، مما جعلني أشعر بالإهانة والغضب.

على الرغم من هذا الموقف المؤلم، لم أيأس، كانت الحلول متوفرة دائمًا عند 'فردفالد'، وكذلك الدعم والتشجيع وحثي على المثابرة في هذا التحدي الذي بدأته.

* يجب ألّا تخذل نفسك يا جيمس، المستقبل المشرق أمامك. عملك محجوز وبانتظارك في فندق مهم، مؤجل قليلًا لاستكمال بعض الخطوات المهمة في رحلة عبورك الجنسي.

ستخضع لدورات التطوير المهني وتعلّم المهارات اللازمة لنجاحك في مجالك المهني. ربما في مجال الطبخ أو التصوير وهما ضمن اهتماماتك ومن المجالات التي برعت فيها كهاوٍ.

ها قد حصلت الآن على سكن جديد، في عالم متسامح ومتفهم وداعم لك. نحن على موعد دائم مع استشارة مختص نفسي معني بحالات المتحولين. اليوم أولها.

ستكون علَمًا ومرجعًا في وقت قريب، بمعنى ستحظى بتفوق لافت في هذا المجال. وعلى المدى البعيد ستكون رمزًا تاريخيًا. تكمل مبتسمة: بعد عمرٍ طويل لأن الرمز لا يكون في زمن صاحبه. ستكون رؤية نافذة وشخصية كاشفة ومرسخة لمبادئ فهم وإظهار «الجندر» بشجاعة وجرأة وصبر.

كان ل'فردفالد' تأثيرًا جليًا عليَّ، وقدرة على إقناعي وحتى تغيير مزاجي.

همست في أذني بعد أن استُقبِلنا في مركز الرعاية النفسية بحفاوة وقد كنا على موعدٍ مسبق، تبدأ 'فردفالد' الكلام في حضرة المختص:

* حاليًا لا بد من استشارة نفسية، هي الخطوة الأولى، ومنها نسلك خارطة طريق يوصلك للقمة.

أولًا، لا بد من تأكيد مدى استقرار رغبتك في التحول وحقيقة كون ذاتك ذكورية.

- يتدخل المختص: ستحظى بمتابعة نفسية واجتماعية للتأقلم مع التغيرات والتحديات التي قد تواجهك والتي ستتجاوزها بمساعدتنا بسهولة.

نبدأ بالتقييم الطبي نتأكد من سلامة بنيتك الجسدية بشكل عام، ولا بد من إجراء بعض الفحوصات والاستقصاءات الضرورية.

أعتقد أنك قد اخترت اسمًا جديدًا «جيمس»، أليس كذلك؟

أهزُ رأسي بالموافقة.

يكمل: ستندمج في المجتمع كرجل في مختلف جوانب الحياة، كن واثقًا. سوف نبدأ قريبًا بالعلاج الهرموني لتعزيز الخصائص الجنسية الذكورية، تغيير لحن الصوت وظهور الشعرانية وحتى تغير تموضع الدهون في الجسم بحسب الشكل الذكوري. ولا بد من استئصال المبيضين على الأقل كخطوة جراحية أولى.

استكمال التحول الجنسي بالجراحة اختياري ولكن أنصحك باستئصال الثديين، هي خطوة مهمة في اقتلاع أهم مقومات الأنوثة، ستستبدلهما بكتلة عضلية رياضية. وفي مراحل متقدمة، يمكن استكمال الجراحة بتصنيع القضيب.

وخلال هذه المدة سنساعدك في تغيير الوثائق الرسمية ومتابعة التغييرات الاجتماعية والقانونية والحصول على عمل. يختلف مسار التحول من شخص لآخر، لكن النتيجة ستكون مرضيةً وستكون مثالًا يحتذى به.

مع مرور الوقت، اكتشفت أنّ التحول لم يكن مجرد تغيير في المظهر الخارجي، بل كان تحدّيًا لروحي وقوّتي الداخلية وإرادتي. فصرت كنابل يخشى أن يخفق سهمه.

لطالما كنت شخصيّة قويّة وصلبة، تساعدني بنيتي الجسدية. جسم ممتلئ وقدّ ممشوق وطول يتفوّق على الكثيرين من بلاد الشرق وإن كان الناس هنا يتميّزون بأجسام طويلة نسبيًّا، وهو ما كان هدفًا لهتلر. بحسب قناعته حول تفوق العرق الآري الذي اعتبره أعلى سلاليًا وثقافيًا من الجنسيات الأخرى فقد انتهج أُسُسًا لانتقاء الأصلح كانت تبريرًا لسياسات التمييز والانتخاب للوصول إلى سلالة متفوقة.

ثقتي بنفسي عالية، رغم ذلك كنت أميل لتقمّص شخصيّة قويّة متسلّطة وكأنّني أنتقم من ضعف المرأة واستكانتها وممّن عمل على تهميشها لا سيّما في مجتمعاتنا. أستعيد التفكير في القيم والمبادئ التي تعبّر عن الرجل وأطبّقها. ليس من السهولة تبنّي شخصية الذكر بين ليلة وضحاها، رغم أن 'فردفالد' وجمعيتها وأصدقاءها يقدمون دعمًا مميّزًا لي، بل وأكثر من ذلك، هم يدفعونني إلى هذا الطريق دفعًا. وأنا أجد إثارة ومتعة في قبول الهويّة الجديدة وتحدّياتها. قد تكون 'ايلينا' هي الشرارة الأولى والغاية، وتأثير بعض ذكريات الطفولة وطبيعة شخصيتي وسلوكها.

لقد وصلت لمرحلة وعي بذاتي ومشاعري وهويّتي الجنسية، بعد ارتباك وتشوّش وخوف. استكشفتها، واتّخذت قرار التحول، وها هي مرحلة العيش وفق الهويّة الجديدة بشكل علنيّ، والتي سأستكملها بخطوات طبيّة وجراحيّة، وإنّي في سعي لدمج هويّته في جميع جوانب حياتي.

كان لا بدّ من الإعلان عن شخصي الجديد بشكل أوسع وصريح والاختلاط بالناس بهيئتي الجديدة. وكذلك الدخول ضمن مجموعات ذات اهتمام مشترك وحال يشبه حالي، هذا ما دفعني لبناء علاقات جديدة مع أطياف شتّى من الناس وحتى مع مجتمع المثليين ومزدوجي الجنس أيضًا، رغم اهتمامي ببناء علاقات صحيّة مع أشخاص أسوياء يفهمون ويدعمون رحلتي هذه أو لهم تجارب مشابهة.

* أسوياء؟ يبدو أنّي بحاجة لشرح هذه المفردة.

من خلال 'فردفالد' التقيت بأشخاص متحوّلين أو على طريق العبور. كنت أنا فقط من الشرق ويبدو أنّ هذا كان من أبرز أسباب الاهتمام الزائد لحالي والدعم الكبير الذي أحظى به. كنت دائمًا من ضيوف الشرف في أيّ أنشطة اجتماعية ومجتمعية تدور في هذا الفلك.

لا ريب أنّي أشعر بالقلق والخوف والارتباك والحيرة، هي مشاعر تسيطر عليَّ في الكثير من المواقف، وبخاصّة عندما أتخيّل نفسي في مجتمعي ووطني الأم وبيئتي الشرقية، لا أستطيع تخيّل حالي بمواجهة الأقارب أو بعض الأصدقاء القدامى، إن أُتيحت لي فرصة اللقاء بهم، وأنا على يقين أني سأكون ضمن الفئة المنبوذة المتّهمة بالضلال والشذوذ.

'سامي' و'سلمى'، وحتى آخرون ممّن قضيت معهم أيّامًا وشهورًا وألفتهم واستأنسوا بي، قد اعتادوا عليَّ كامرأة قويّة

ناجحة، لم يتقبلوني كذكر يسعى ليثبت أنّه رجل. كثيرون قد بدأوا يظهرون اندماجًا في المجتمع الغربي ولكن حالي مختلف بالنسبة إليهم، كنت ممّن خرق القواعد والثوابت والقيم.

كان موقفهم سلبيًّا جدًّا منّي، صرت كمن يعيش في عزلة اجتماعية، غربة مجدّدًا بين الأصحاب، بعد أن ظننت أنّي قد تجاوزت غربة الوطن.

من الصعوبة بمكان تقبّل نفسي وحالي في الوقت الذي يرفضني فيه الكثيرون ممّن حولي، ولكنّي اعتدت أن أحاول دائمًا. أحدّث نفسي:

* سأتغلّب على المشاكل والصعوبات بشجاعة، قوّتي في قبول نفسي تتنامى، لا بدّ من التكامل كرجل، هذا صار هاجسي ومبتغاي.

في مقابل ذلك يكسوني الفرح والارتياح لأني استطعت أن أجد نفسي وأحقّق غاياتي وليس أقلّها أملي بالفوز بـ'ايلينا'، إضافة للخروج من الصورة النمطيّة للمرأة الخاضعة المقهورة التابعة، والتمتّع بامتيازات الذكور وتسلّطهم وحريّتهم، وكذلك الانتصار على ذكريات وعقد الطفولة. وجدت الكثيرين ممّن يقدّمون لي الدعم والذين يتقبلونني بشخصي الجديد، وهذا ما كان يزيد ابتهاجي وسروري ويخلق فيَّ الإثارة والتفاؤل لاستكمال رحلتي هذه نحو التغيير والتعبير عن هويّتي بشكل أكثر صراحة وصدق رغم كلّ العقبات والتحدّيات.

ومن ناحية أخرى تقتحمني مشاعر الحزن من جديد لأجدها تسيطر عليَّ في التحدّيات التي يصعب تجاوزها بسلاسة، ممّا يسبّب لي المعاناة وربّما الألم والشدّة.

تتناوب عليَّ وتتابع مشاعر الفرح والحزن، القوّة والضّعف، النجاح والقلق، الندم على ما أقدمت عليه حينًا والتحدي حينًا آخر للمضي قدمًا، وبخاصّة بعد أن تجاوزت بعض التحديات الاجتماعية، وقد مرّ ما يزيد عن الشهرين من بداية تحولي، كان لا بد لي لاحقًا من السعي للحصول على عمل وإعادة المحاولة وطرق أبوابًا جديدة.

كنت ألحظ نظرات الاستنكار حينًا والتنمّر والانقباض وحتّى النفور منّي حينًا آخر، سواءً من أرباب العمل، أو من العديد من الأشخاص الذين عرفوني بوجهَيَّ: الأنثى والذكر.

كثير من الحوادث والمواقف كان لها وقعًا عليَّ. واجهت موجة من النظرات الساخرة والازدراء من المسؤولين وبعض العمّال عندما تقدّمت للعمل في أحد المصانع، من دون أن أحظى بالقبول للعمل. كان البعض ينظر إليَّ بريبة، وفي مقابلة التوظيف، سُئلت:

* «ألن تكون هذه البيئة الخشنة قاسية جدًّا عليك؟.

كلّ ما حزت عليه حينها بعد المقابلة، بعض النكات والتعليقات الساخرة من العمّال. كان أحدهم يقلّد طريقة مشيتي ويضحك بصوت عالٍ.

على الرغم من هذا الموقف المؤلم جرح مشاعري، لم أستسلم لليأس. فقد قرّرت مواصلة البحث عن فرصة أخرى، في مكان يحترم الجميع على قدم المساواة، بغضّ النظر عن الجنس أو المظهر الخارجي.

وبعد أيّام تالية، مررت بالقرب من المصنع، رأيت مجموعة من العمال يشيرون إليّ ويصفّرون بازدراء، كما لو كانوا يسخرون منّي. أكملت طريقي من دون أن أعيرهم أدنى اهتمام.

وفي طريق العودة شاهدت طفلًا صغيرًا يسقط على الأرض، يبدو عليه الخوف والبكاء، اندفعتُ نحوه مباشرة وبسرعة لاإرادية.

أبسبب نخوة الرجل!؟ أو ربّما شعور بالحنان تجاهه ورغبتي في حمايته.

إحساس يشبه الأمومة التي لم اختبرها؟! أيّ احساس هذا؟!.

سبقتني أمّه التي اندفعت إليه بسرعة، تحتضنه بحنان وتهمس له بكلمات تطمئن قلبه. تبدأ في فحص جسمه برفق للتأكد من سلامته، وسط دموع الصغير وحنان الأم. في هذه اللحظات، يظهر إحساسها كأمّ جليًّا من خلال الاستجابة السريعة والرغبة الفورية في حماية ورعاية الطفل في أوقات الضعف والخوف. اعتصر قلبي، شعرت انقباضًا في بطني وصدري.

أيّ تفسير لشعوري هذا!

ابتعدت عنهما بخطواتٍ سريعة، أسير على غير هدى، الوقت ليس متأخّرًا، هي ساعات الليل الأولى، وإذ بي قد وصلت إلى زقاق، وبعض من الخوف قد أخذ منّي مأخذًا من دون مبرّر، أو ربّما كانت صور العمال الذين سخروا منّي لا تزال في مخيّلتي ولا أزال في محيط المعمل. فجأة، شعرت بيدٍ تُمسكني بقوة من الخلف. حاولت التملّص من قبضة الغريب، لكنّه كان أقوى منّي، وجهه حفظته دون أن أعرف من يكون ولكنني على يقين أنّي كنت قد شاهدته في مكان ما، أسمعني تمتمات ونقدًا لاذعًا، ناداني بـ:

* 'يا نكرة، أنت فساد'.

جرّني هذا الغريب إلى الخلف ثم دفعني، عاجلني بصفعة ولكمة ثم بصاق ثم اختفى قبل أن أتمكّن من الصراخ طلبًا للمساعدة. حاولت المقاومة، لكنّه كان يُمسكني بقوّة ويُحاول خنقي ويمنع خروج صوتي. شعرت للحظة بأنّي سأموت. شعرت بألم في بطني، وإحساس بالغثيان يكاد يكون قيئًا وهذا ما تكرّر معي لاحقًا. مر ذلك مثل الحلم، لكنني حاولت تناسيه.

كنت قد واجهت العديد من الصراعات النفسية، ليس أقلّها الشعور بالوحدة والعزلة. والخوف من الرفض إضافة لمشاعر عدم الرضا عن جسدي، ممّا قد يؤدي إلى القلق والاكتئاب.

وليس آخرها التمييز والعنف مؤخرًا.

أشعر باختلاف منذ طفولتي. لكن اليوم لم أعد تلك الأنثى ولا أصبحت ذلك الذكر الذي كان المثَل والأمل. الآن ألملم شظايا ذاتي، لأكون الرجل، ثالث ثلاثة بعد نونو ويم.

مواقف أقلّ وطأة أتعرّض لها عندما أظهر أوراقًا ثبوتيّة، كنت على وعد من 'فردفالد' لبدء إجراءات تغييرها وعلى موعد مع محامٍ يعمل لصالح جمعيّتها لإنجاز ذلك. أشعر بتردّد عندما أظهرها، وعدم ثقة بالنفس وخشية من رفضي أو تجنّبي. أوراق ثبوتيّة لأنثى بينما كنت أحاول أن أبدو بشكل الذكر. شكلي الخارجي ما بين بين. صوتي لا يزال أنثويًّا علمًا أنّي قد بدأت علاجًا هرمونيًّا منذ فترة قصيرة، سيكون أولى تأثيراته على الصوت في القريب العاجل، والذي سيسبب انخفاضًا في طبقة الصوت فيبدو أعمق وأكثر قوة وصلابة.

محترفو الرعاية الصحية والمختصّين المشرفين على متابعتي، وفي سياق زيارتي الدورية ومتابعاتي الصحية، عرضوا عليَّ معلومات دقيقة حول تأثيرات العلاج الهرموني، وقد بدأت بتعاطيه. الفترة الزمنية المتوقعة لظهور النتائج متباينة لتباين تأثيرات العلاج. تختلف فترة بدء ظهور تأثير العلاج الهرموني بين الأفراد وتعتمد على عوامل متعددة، بما في ذلك الجرعة المستخدمة واستجابة الجسم الفردية.

تبدأ تغيّرات في الجلد بعد شهر تقريبًا من قبيل ظهور حبّ شباب وحتى تسمك الجلد. كما كنت قد لاحظت زيادة نمو الشعر، تكَثّفت وتجمَّعت شعيرات متجعّدة من غير طُول، على

وجهي من دون أن تشكل لحية أو شارب كث حقيقي. وكذلك على الصدر وإن بدا قبيحًا بوجود الثديين، وهذا ما دفعني لاستعجال التخطيط لجراحة استئصالية لهما إضافة للمبيضين، وهي خطوة أولى في الجراحة لا بدّ أن يتبعها خطوات.

شهر أو أكثر مرّ منذ بدء العلاج الهرموني هذا، على أن يستمر على مدى السنوات القادمة ويستمر معه تكامل نتائجه حسب ذكر الطبيب الذي واظب على الاهتمام بصحّتي العامة. وهذا ما صار هاجسًا لي في ظل هذه التغيرات.

كانت العناية بالمظهر الشخصي والاهتمام بالأمور الشخصية، جنبًا إلى جنب مع المتابعة الصحية والنفسية التي ألتزم بها. فقد كنت أخضع لمواعيد متتالية وجلسات متابعة.

ورغم كل مظاهر المساواة والتطور في هذا البلد، وكل الدعم الذي أحظى به، لم تكن الاستشارات الصحية دائمًا سهلة، في ظل التباينات في الهويّة الجنسية وما تخلق من خصوصية جسدية، وأمراض أو اضطرابات قد تختلف عن عامّة الناس. وهذا ما كان سببًا لتشكيل مراكز صحية خاصّة تُعنى بالصحّة الجسديّة والنفسيّة ل أمثالنا.

زرت مستشفى عامًّا لحالة طارئة ألمّت بي: ألم في بطني شديد. كنت أتردّد في ذكر كلّ الأعراض الّتي تنتابني، وبخاصّة أنّ أعراض جديدة قد بدأت بالظهور، كنت أعزّي بعضها للعلاج الهرموني ولكن بعضها ظهر قبل البدء به حتى. فإضافة

للتقلبات المزاجية عانيت من التعب والارهاق، غابت الدورة الشهرية منذ أشهر، تبوّل متكرّر وإمساك، وحتى ألم في الثديين وصولًا إلى مفرزات مهبليّة. ونزف خفيف سيتحوّل بعد أسابيع لنزف قوي وهذا ما سيكون له قصة مفصليّة في مسيرتي.

في غرفة الطوارئ التي دخلتها أنشد تسكينًا لألمي، شاهدت أمًّا تقف بالقرب من طفلها الصغير المريض النائم بسكون، يغمره السكون والسلام. تقف أمام سريره بابتسامة عذبة، تلمس خدوده اللطيفة برفق، تفيض منها الأمومة والفخر والحنان ورغبة قويّة لحماية ورعاية الصغير. اتّصال عميق بينهما، ومراقبة عميقة منّي.

اعتصر قلبي حينها وأذكر أنّي غادرت دون استكمال ما ذهبت بسببه. لماذا تتكرّر مشاهد كهذه في حياتي مؤخّرًا؟ أم أنّ ما نفكّر به ويشغل حيّزًا من بالنا ينطبق عليه قانون الجذب فنشدّه إلينا. وفقًا لهذا المفهوم، فإنّ ما نركّز عليه ونصدّره من طاقة إيجابيّة أو سلبيّة هو ما سنجذبه إلى واقعنا.

وأخيرًا وليس آخرًا، في خضمّ ما أعايشه من تغيّرات وتبدّلات، كانت التغيرات في الشهوة الجنسية مختلطة، زيادةً أو نقصًا أو حتّى عدم وضوح رغبتي الصريحة.

تنامى انخفاضُ رغبتي مع الوقتِ، حتى بتُّ لا أشعرُ بأيّ رغبةٍ جنسية على الإطلاق. شعرتُ بالوحدةِ والاكتئابِ من جرّاء ذلك. حاولتُ أنْ أثيرَ نفسي، أن أستذكر 'ايلينا'، ولا أخفي

سرًّا حتى 'نبال' و'زوجي الميت' حضروا في تخيلاتي، لكن كلّها كانت مبهمة.

أبأنثى أو رجل أرغب؟ كيف السبيل لتجاوز ذلك؟ وهذا ما كان من إحدى أهمّ هواجسي ودوافعي الأساسية أيضًا للتحول.

ولكن دائمًا ما تحضر فردفالد، وعند كل لقاء بيننا، وقد تتالت اللقاءات وتعاظمت، تفيض عليّ بالدعم والتحفيز:

* التكامل يحتاج إلى الوقت والصبر والشجاعة، وهو وإن كان عملية فردية فإننا في هذه التجربة، سنكون يدك وقوّتك وحتى عقلك الذي تفكّر به. لك منّا كلّ الدعم، وسنقدّم لك كل ما هو مفيد.

ـ أجاريها في الحديث: سأمضي قدُمًا... دائمًا ما يكون هذا جوابي، سأستمر في قراري، هذه رغبتي.

* ستكون في خدمة المجتمع، وللحرية والتسامح والنجاح رمزًا وأيقونة، المستقبل لنا.

* تعيد فردفالد: التكامل طريق طويل أنت رائده، كما أخبرتك. وإننا دائمًا لك داعمين.

يمكن مناقشة كلّ التفاصيل مع الخبراء النفسيين وإيجاد الحلول بسهولة. أولى بشائرها أزفّها إليك، لقد حصلت على عمل.

قد أصبحت كبير الطهاة في فندق «الكس» ستباشر عملك خلال فترة وجيزة.

13

ويحدث أن تضيق علينا الأرض بما رحبت، وتصبح الدنيا كهفًا للألم، وكأني أجثم فيه الآن. مفؤودة، ضعيفة الفؤاد كمجروح تلظّى، يظللني الحزن والأسى، حتى أكاد أتلمّس سيفًا يخترق صدري ويمزّق أحشائي ألمًا. تجتاحني موجات الشّجن والفقد، تختلط مشاعري الصاخبة مع صدى أنيني الخافت ولساني الذي نَذَر صومًا.

إحساس أمومة مفقودة لم تشقّ طريقها للوجود، تتداخل مع الرجولة الموهومة المرجوّة وتنتهي بآمال خابت، ومراحل عدّة ضاعت.

أشعر بالإرهاق والألم الجسدي وأواجه صعوبة في التعبير عن مشاعري أو حتّى فهمها. عيوني غائرة محاطة بهالات سوداء، شفتاي مرتعشتان، تنزلق عليهما بعض الدموع بين الحين والآخر، أمسحها بظاهر يدي. وجهي شاحب وخالٍ من غير ملامح الحزن والألم والانكسار.

في الغرفة، حيث أقبع، يدخل ويخرج أحيانًا نفر من الناس، وتجلس أخرى إلى جواري. وأنا أتكوّم على السرير

بوضعية نصف جلوس، كتفاي منحنيان وجسدي منكمش على نفسه كأنّي أحاول الاختباء من العالم. ذراعاي ملتفتان حول نفسي كمن يحاول الاحتماء ويطلب الاحتواء.

أهمس ببعض كلمات مبتورة: عن أسف... خيبة... أو ندم على أمر قد حدث. أتمنى لو كان بإمكاني تغيير الماضي. وأنَّى لي ذلك وكلّي عجز عن إدراك غاياتي بدقة. حركاتي بطيئة وكلامي خافت وعجزي ظاهر.

أتجنّب النظر في عيون من يمر بي. يغمرني شعور بالذنب والخزي. أنهارُ أحيانًا بالبكاء المرير، ثم أشرد بصمت أستعيد شريط ذكريات محزنة لا أستطيع التخلّص منها.

إنّها صورة الحزن العميق والندم المؤلم، حيث تكون الروح مثقلة بأعباء وأوزار، فتصبغ العالم بسواد يبدو قاتمًا ومظلمًا يأبى الأمل أن يجد بصيصًا فيه.

أتلمّس بكلتا يدي وبلطف بطني الفارغ، وبروز صدري، أو بالأحرى بروز ضمادات جراحية تغطي شقوق جراحية عليه.

مجددًا أحاول استدعاء شيء من الأمل، بقايا دفء روحي، فأضيع في متاهة من التساؤلات.

بصوت مختنق ومكتوم، تهتف أنَّات حارة. أستنجد السماوات لتردّ إليَّ ذاتي وكلِّي المفقود أو بعض بعضي. ولكن أجواء السماء تظلّ صامتة، باردة.

هل سأتعافى يومًا؟ وممّا بالضبط سأتعافى؟

تجتاحني موجات من الحزن العميق لفقدان كائن حي كان يكبر داخلي من دون إرادتي ومن دون علم منّي حتى، فجأة تنامى وصار له الكلمة واليد الطولى عليّ وعلى كياني ككل. إحساس بأمومة مفقودة تحوَّل إلى كابوس يؤلمني. لن أنجب مرّة أخرى، ورحمي الآيل إلى الفناء سيظل قبرًا لأحلام الأمومة؟ كلّ الطرق ستوصل لهذه النهاية المأساوية.

جنيني، ولدي، سامحني إن لم أدرك أنك أنت الذي كنت تتألم ولم يكن ما أشعر به ألم بطني ونوبات مغص عادية بعد وجبة غير صحية. لا بد أنك حاولت مرارًا أن تخبرني أنّك تعاني وتريدني أن أشعر بك أو أنتبه أنّ هناك خطب ما ...

أَيَا أناي الجريحة النازفة، أَيَا أناي البحر الهائج الذي يرتطم بصخور الحسرة والألم. ابكي بصمت وانزفي دمًا لفقد ذلك الكائن البريء الذي كُنتُه أنا، وآخر حملتُه في رحمي وداخل شغاف قلبي.

مزيج معقّد من الآلام والحسرات والذنب، وفراغٌ روحي وجسدي فادح. قطعة وربما قطع، من نفسي وجسدي، وإن كانت آثمة، قد انتُزعت مني بقسوة.

إحباط وفشل يَسِمُني وكأني قد أخفقت في كلّ ما عملته في حياتي، وفي كلّ واجب تجاه ذاتي.

أشعر وكأن العالم يضيق عليّ، بالكاد أستطيع التنفس. ألمٌ يعصر بصدري أكبر من أن أتحمله. ولدي، يرونك بكل بساطه جنينًا لم يكتب له البقاء وكأنّه حالة مرضية عادية ستمر. وأراك حياة كان يمكن لها أن تنمو وتسمو بروحي وفكري، وطفلًا سيكبر ليملأ دنياي فرحًا. أندهك علَّ قدرة تستدعيك إليَّ من الفناء لأحملك بين ذراعي، فأصحو على كفَّي مليئتين بدمائك، وأذني تضج من صراخك.

تراودني أسئلة مريرة كثيرة عما إذا كان بإمكاني فعل أي شيء لتجنب هذه النهاية المأساوية التي وضعت نفسي بها. وقد وصلت إلى نقطة اللاعودة، ألوم نفسي وأشعر بالذنب الشديد والفشل الذريع في كل محطات حياتي. تصل إلى ذروتها الآن، يوقدها الإجهاض من دون أن يكون هذا الأخير فعلتي ولا الحمل قبله قراري. أشعر بالعزلة والوحدة وربما أطلبها أيضًا.

بعد زفير هذا الليل الطويل على سرير المستشفى، تتنفس همسات الصباح وفيها وشاية عن استمرار نبضات قلبي المتهالكة التي وجب توقفها تأثرًا بما جرى. أنظر إلى وجهي عبر كاميرا هاتفي المحمول، الذي يعطيني خيارات عدة من تجميل ملامحي إلى تعديل بعضها وإضفاء لمسة تجميلية. ليت لدي قدرة الهاتف هذه على تغييري، وأنا بالكاد أعرف وجهي وبصعوبة حتى، وأَضيعُ يقينًا عن معرفة ذاتي. لا أجد سوى

الصمت ألجأ إليه، أحني رأسي خجلًا من الدمع الذي لا يمكن احتواؤه. أتطلع إلى السماء أبحث عن قوة داخلية تساعدني على تخطّي هذا الامتحان القاسي، وإعادة ثقتي بنفسي وترميمها بعد أن واظبت على هدمها بحجة إصلاحها. أنّى لي بقوّة روحيّة تأتيني أو تنبعث من أعماقي، من عمق روحي لتنبض مشاعر وحكمة ونجاة.

تتلاشى الكلمات مجدّدًا أمام عبارة واحدة تنبعث من داخلي بقوّة، فتسكب الحزن جرعات دموع حارّة حارقة تتدفّق على وجنتي نهرًا يماثل نهر حزني المتدفّق السرمدي. وتعلو صرخة صامتة من جديد:

من أنا ومن أصبحت؟

«أيتها الحياة كان بإمكاننا إصلاح الأمور، أن تكوني أفضل وأسهل. لم أشعر يومًا أنّني بحاجة ذاتي كما أشعر الآن!»

في الماضي القريب، ومن دون وعي أو فهم منّي أو إدراك لما يجري بكياني. كنت أشعر بنبض ما فيَّ، لا أدري كيف أصفه، شعور أمدّني بالدفء والحياة، قوّة غريبة تدفعني للسعادة، للاكتفاء بذاتي، وكأن الدنيا تفتح لي ذراعيها. ظننت أنّ تغيّر مزاجي هذا مصاحبًا لرغبتي بالتحوّل، ليتني حررت نفسي من قيود ومتابعة جلسات 'فردفالد' البغيضة لأفهم أن الأمر أكبر وأقدس من تفاهات إرادتي... أيّام مرّت وكأنّي لست

أنا، احببت ذاتي أكثر... يا لغبائي الآن أدركت أنّ ما أحببته هو ذاك الجنين في أحشائي.

كنت قد عانيت من آلام متقطّعة في أسفل البطن، من دون أن أعيرها اهتمامًا خاصًّا، لا سيّما في ظل الكثير من التغيرات والأعراض التي تمرّ بي مؤخرًا، آلام تشبه آلام الدورة الشهرية التي غابت منذ أشهر عدّة، وإن لم يغب عنّي بعض نزيفٍ خفيفٍ كنت أعزوه لتلك التبدّلات المزاجية المتكررة التي أمرّ بها، وحالتي النفسية غير المستقرّة، إضافة للكثير من الشدّات النفسية والمنغّصات التي تقحم ذاتها في أكثر من حال.

ومؤخّرًا، في اليوم الفصل والحدث، في فندق ألكس حيث بدأت عملي ككبير الطهاة.

ولمّا كنت أتردد إلى الطابق العلوي والتراس في الفندق، لما أجد فيه من منحة للاسترخاء في إحدى غرفه، ذات التصميم الأنيق الخاص.

وأرتاد الصالة الرياضية وأؤدي تمارين قاسية متتالية، أجد فيها دفعًا أماميًا لمزاجي عندما يكون منخفضًا، وسلاحًا أدفع به بعضًا من التوتر والقلق الذي ينتابني، وسبيلًا لضبط الوزن وإدارته وبناء كتلة عضلية ذكورية.

الساونا أيضًا حاضرة في الصالة وفي برنامجي الرياضي، تنشّط الجهاز المناعي وتحفز إفراز الهرمونات المفيدة،

وتخفّف التوتّر أيضًا وتساهم في الاسترخاء العضلي، وتطهير البشرة من السموم والشوائب.

كنت قد مارست تمارين رياضية شاقة، أتبعتها بساونا ذات درجات حرارة عالية، وهذا ما لا ينصح به عادة لأنه قد تزيد من خطر الإجهاد الحراري والإرهاق، ولكنّي فعلت. بعدها لاحظت نزيفًا سفليًا مترقيًا أصابني، ثم أصبح أكثر غزارة إلى أن احتوى أيضًا على تجلّطات دموية.

استمرت آلام بطني وازدادت حدّتها، وكأنّي ألفظ أحشائي ثم أطرد ما يشبه جسمًا بشريًّا دقيقًا يسبح في سائل يختلط بدمي النازف. استغرق الأمر بضع ساعات، أذكر أنني حينها اتصلت 'بفردفالد'، ثمّ صحوت لأجد نفسي أرقد في سريري هذا داخل المستشفى.

أتلمّس بكلتا يدي وبلطف، نقاطًا ومساحات من جسدي تضجّ ألمًا واضطرابًا، بطني الفارغ، وبروز صدري الزائف.

أجد 'فردفالد' قربي شعرت بنفور خفيّ منها، تمنّيت أن يكون 'سامي' أو 'سلمى' من أصحى على رؤيته بجانبي، أو أمّي الحضن الذي افتقدته دائمًا، أو ربّما زوجي القتيل، أيّ منهم، لا 'فردفالد' لكن ذلك كلّه محال.

* تقول: لقد تعرّضت لنزيف وإغماء، لكنّني كنت إلى جنبك كالعادة داعمة، انتهى الأمر بنجاح.

يسود صمتي البليغ، وتأبى جوارحي أن تتحدّث.

كان إجهاضًا لحمل انعقد بعدما أمضيتُ تلك الليلة الآثمة مع ذاك الرجل الجذّاب، شديد السمرة والذي التقيته في النادي الليلي. كان قد جلس أمامي وقتها فعاجلته بغمزة ثم انتهيت في فراشه باحثة عن الإجابة عمّن أكون أنا؟ وأظنّه قد أشبع كياني حينها وأنوثتي، وإلا ما انصهرت أرواح وأثمرت.

بعد هذا اللقاء العبثي انعقد هذا الحمل الآثم وانتهى بإجهاض قد يكون حرَّضه تأثير العلاج الهرموني الذي خضعت له مؤخرًا وربما عجَّل به الإجهاد الحراري والإرهاق اللذين تعرضت لهما بعد التمارين الرياضية القاسية والساونا.

أتحسّس صدري مجددًا...

* تكمل 'فردفالد' قد خضعت أيضًا لعملية استئصال الثديين، هي إجراء جراحي كان لا بد منه لاستكمال رجولتك، كنّا قد تحدثنا سابقًا في ذلك، وتذكر ربما موافقتك الخطية على ذلك. إزالة نسيج الثدي وإعادة تشكيل منطقة الصدر لإعطائها شكلًا أكثر ذكورة.

يسود صمت من جديد بينما تسرح عيناي في المجهول والبعيد.

فلذة أخرى اقتطعت مني، ربّما من لبّ قلبي أيضًا.

كان لي صراع مع نهديَّ مذ كنت وأترابي كواعب، لم أكن على تآلف وانسجام معهما، منذ نَهَدا كان تبرعمهما هاجسًا

مخيفًا بالنسبة إليّ، يتسبب بأفكار وأوهام ضاغطة ملحّة ومزعجة ربّما لا معنى لها لكنها لا تطاق، ترافق ذاك مع مراحل وعلامات البلوغ.

قد أكون تجاوزت لاحقًا شكليهما وما آل إليه عندما اكتمل بلوغي. ولكن انتابني هاجس آخر. فكثيرًا ما كنت أسمع عن سرطان الثدي الذي يفتك بالنساء، يهدّد أهم مقومات أنوثتهن وينذرهن بموت محتم في حال أهمل العلاج. أذكر قصّة معلّمة اللغة العربية في مدرستي الثانوية، والتي كانت تصارع من دون هوادة هذا الداء الخبيث الذي سطّر في عينيها حروف المعاناة وكتب على جسدها كتابات الألم وهي التي حاولت محو كلّ ذلك بالأمل والصمود.

يومًا بعد يوم، كانت حياتها تتقلّص شيئًا فشيئًا كأوراق الخريف الذابلة، يتآكل جسدها ببطء مؤلم. في لحظات الخوف والحزن، كانت تنشد احتواء، تبحث عن حضن دافئ يؤويها من برد القلق الذي ينخر عظامها. أحيانًا أخرى تلجأ إلى زاوية مظلمة، تكتم أنفاسها وتدعها تنساب في صمت. وكثيرًا ما كانت تلهث بغضب وتتمرّد على قدرها.

في رحلتها المريرة، كانت تمسك بخيوط الحياة بأطراف أصابعها، محتفظة بابتسامة هزيلة على شفتيها.

في كل مرحلة من مراحل المعاناة، كانت تتذكّر كلمات طبيبها القوية:

ـ «لا تستسلمي، قاومي بكلّ ما أوتيت من قوّة».

وهكذا فعلت، قاومت بضراوة الأسد، واجهت الموت وجهًا لوجه ولم تهرب منه قط. في النهاية، خرجت منتصرة، تحمل على جسدها بعض الجروح، لكنها ترفع رأسها عاليًا، فخورة بمعركتها البطولية ضد ذلك العدو اللعين. هذا الداء الذي كلما أكتشف مبكرًا كانت نتائج علاجه أكثر فعالية. حتى صرنا في وقتنا الراهن نشاهد الكثيرات من النساء ممّن يتجاوزن محنًا كهذه، يكللنها بنجاح العلاج ومتابعة حياتهن بعافية.

صحيح أني لم أصب بسرطان الثدي ولكن نهديَّ كانا يؤرقانني فعلًا.

لم أكد أتناسى فكرة إمكانية إصابتي بالسرطان ليبدأ من جديد حنقي وسخطي على ثديي مجددًا. تنمّر، من كان زوجي، على حجمهما الصغيرين غير الممتلئين، حيث يعتبر الكثير من الرجال أنّ الصدر الممتلئ المرفوع هو سلاح فعّال للإغراء الأنثوي، كما أنّه يثير المخيّلة الشهوانية. وأنا العزلاء وسيف أنوثتي مُغمَد. كثيرًا ما كنت أتحسّسهما وأمسح عليهما بحركة دائرية أثناء الاستحمام. هذه المنحوتة وما لها من أثر وجاذبية، فيها من الدقائق والتفاصيل ما يُعجز الفنانين. لم أشعر بهما كرمز الأمومة والحنان كما أشعر الآن وقد اغتيلا.

كيف تنقلب الأحاسيس والمشاعر وتتناقض؟

استمر إحساسي سلبيًا تجاههما في مرحلة التحوّل التي أخوضها. كانا حاجزًا في طريق اكتمال تحوّل شكلي الخارجي للذكورة. كثيرًا ما تبادر إلى ذهني، ورسمت وتخيّلت شكل صدري عندما استبدل شكله الأنثوي الناقص بآخر ذكوري تصقله التمارين الرياضية ويزينه الشعر. كنت أظن أنها ستكون لحظات سعيدة وإن شابها شيء من الخوف أو التوتر.

الصراع والتعارض مع نهديَّ، من تبرعهما إلى خشيتي من السرطان ثم التنمر على حجمهما الصغير، إلى كونهما أنوثة جسدية باقية تهزأ من رجولة موهومة. كل ذلك لم يمنع اضطرابي ولوعتي التي لم أجد تبريرًا لها عندما أيقنت أني فقدتهما إلى الأبد.

* جيمس... أنت على ما يرام؟

يقطع بنات أفكاري صوت 'فردفالد'.

أنظر إلى عينيها وكأنّي أتّهمها بأنّها قد أخفَت عنّي خبر حَملي، وأنّها على علم مسبق به، لأنه لا بد أن اكتشف ذلك أثناء الفحوصات الطبية في بداية مرحلة التحول خاصتي.

تمر في مخيلتي كل اللحظات بتفاصيلها منذ أن اتخذت قرار التحول إلى رجل. بدءًا من التغيّرات الشكلية ثمّ الجسدية التي بدأت تظهر جليّة على شكلي باتجاه الذكورة. تأثير المعالجة

الهرمونية بدأ بالظهور، أولها كان الإجهاض، إضافة لظهور الشعر بتوزع ذكوري وتغيّر لحن وطبقة الصوت، وصولًا إلى المضي قدمًا نحو بنية الجسد الذكورية من حيث توزع الدهون في الجسم بمستوى الكتفين بديلًا عن الوركين والصدر، وبناء كتلة عضلية وتفصيلية للعضلات.

التغييرات على حياتي اليومية ونظرتي لذاتي، إضافة للصراعات النفسية والعاطفية التي واجهتها وأواجهها في رحلة التحول هذه، مثل الارتباك، الخوف، القبول الذاتي، وغيرها.

وفي جانب آخر، تأثير ذلك على علاقاتي مع زملائي والأصدقاء وبخاصّة 'سامي' و'سلمى' وصولًا للمجتمع ككل، القريب مني وحتى البعيد. تعاملي معهم وردود أفعالهم المختلفة.

التحديات الدينية، القانونية والتحديات الصحية من رعاية صحية خاصّة إلى خطورة الإصابة بأمراض معينة، إضافة للمخاطر والمضاعفات الناجمة عن العمليات الجراحية أو الهرمونات.

صراع مفاهيم الهوية الجنسية والجندرية، وخوض غمار البحث عن انتمائي الحقيقي في عالم أقحمت نفسي فيه دونما فهم ووعي كافٍ في هذه القضايا، رغم إظهار قوّة شخصيتي، ولعب دور البطل في مواجهة التحديات والعقبات.

كنت أستمد القوة من داخلي حينًا، وتوهمني 'فردفالد' بحيازتها وتفوّقي للمضي قدمًا في رحلتي في البحث عن الذات والقبول.

أنا مجرّد طيف رجل ضائع في عالم غريب، بعد أن شوّه الأنثى التي كانها. يعيش في جسد لا ينتمي إليه، يتنفس من دون أن يحيا. طيف رجل بذاكرة أنثى.

أين أنا من السعادة والندم والحنين؟

هل وجدت السلام؟

هل وجدت الحب؟

هل وجدت المعنى والغاية التي بحثت عنها؟

14

بعد معاناتي من العديد الصراعات الفكرية وخوض الكثير من التحديات على مستوى الذات أوّلًا والواقع الذي يحيط بي، تحوّلت شخصيتي التي عُجنت بالعديد من المشاكل النفسية، مشاكل مثل الاكتئاب، واضطرابات القلق، واضطرابات الهوية. تغذيها الضغوط الاجتماعية التي تعرّضت وأتعرّض لها مثل التمييز أو العزل الاجتماعي. وانتهاء بالإجهاض.

خلق كلّ ذلك لديّ ما يشبه الاضطرابات العقلية والأمراض النفسية.

أحاول أن أكون شخصية قوية، تتسم بالتحكم والقيادة ورغبة قوية في السيطرة، وإظهار التفوق والتفاخر به ربما لدرجة التصنّع. حتى صرت أفتقد إلى التواضع وحتى الاحترام في تعاملي مع الآخرين أحيانًا. أعتبر نفسي فوق القوانين والتقاليد، لا سيّما بعد الدعم الذي تحيطني به 'فردفالد'، وعملي المرموق الذي حظيت به في الفندق. ربّما كان ذلك هروبًا إلى الأمام تعويضًا عن كلّ الفشل الذي منيت به وعمّا

سلب مني، وربما لأخفي الحقيقة والخذلان وعدم الرضا عن الذات.

تجاربي الحياتية الصعبة ومشاكل العلاقات التي فشلت فيها كلها، إضافة للمشاكل الصحية والجسدية الأخيرة التي ألمّت بي وأخرى أقحمت نفسي بها. كل ذلك دفعني لخوض غمار الاعتياد على المواد المخدّرة والكحول وربما أكون على طريق إدمانها. فقد ساعدتني في السيطرة على حالة الشعور بالضيق النفسي والتفكير في الانتحار في غياب أيّ مساعدة حقيقية من الأصدقاء الصدوقين الحقيقيين وبخاصّة في ظل غياب العائلة. ولكنها طريق للموت.

كانت 'فردفالد' تلمس كل ذلك، فاختارت أن تخلق تجربة فريدة، تغييرًا جذريًا لكل ما يحيط بي، للروتين والمكان والأشخاص والأحداث، أن تقحمني في تجربة تخلق صدمة علّها تفعل فعل الصدمة الكهربائية التي يُعرَّض لها القلب عند توقفه ليقلع من جديد بإيقاع جديد.

بينما كنت أهيم في عوالمي المضطربة، كنت أستكمل ما كنت واظبت على كتابته على هاتفي من ذكريات ومذكّرات يوميّة وملاحظات. إضافة لرسالة كنت قد كتبتها ل إلينا دون أو أرسلها، وأخرى كتبتها من نفسي لنفسي، بلسان يم تخاطبني. دخلت غرفتي 'فردفالد' فوضعت الرسائل ضمن «حافظة هاتفي».

جلسنا تحدثنا قليلًا، دعتني لقضاء ليلة الغد في قلعة دراكولا، سنصل إليها بواسطة عربة تجرّها الجياد، ندخلها ونستكشفها. وسيكون في انتظارنا عشاء خاصّ في تجربة فريدة وغير مسبوقة.

كان قد تجمع نفر من المحققين ورجال الشرطة في القلعة وبعد أن مسحوا ساحة الجريمة بالكامل من دون إهمال أيّ تفصيل قد يقود للخيط الذي يكشف الحقيقة.

وترك القول الفصل للشاهد الذي أحصى كلّ حركة وهمسة في كل زاوية من هذا المكان؛ الشاهد الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من دون أن يقحم نفسه بها ويسجلها، ضاربًا خصوصية الإنسان عرض الحائط. الشاهد أو بالأحرى الرقيب الذي يأتمر بأمره الحاسم جيش من العيون المزروعة في كل حدب وزاوية، على الأسطح وعند الأبواب. هل يوجد فعلًا مبرر لكل تلك الرقابة؟ ذاع سيط المخابرات والمخبرين في الشرق وذاع سيط عيون كاميرات المراقبة في الغرب. هي من الموضوعات الجدلية التي تثير الكثير من النقاش، وممّا قد ينطبق عليه المثل الشعبي «غيرله اسمه وهاته».

هي تلك العيون الساهرة الحارسة، المترصّدة لكلّ حركة وخطوة. عيون لا تنام، لا تتعب، لا تتراخى، عيون محكومة بهاجس الترقّب والاستبصار، ممتهنة فنّ المراقبة حتى الإتقان، لا تغفل لحظة ولا تتهاون لجزء من الثانية، تألف الظلام، وتقتنص آثار الأنفاس وبصمات الأقدام.

وبالفعل، راقب المحققون كلّ تفصيل منذ دخل الضحيّة ومرافقته القلعة. مشادات كلامية بين 'جيمس' و'فردفالد'، ومشاهد أخرى لجيمس في غرفة التعذيب يحاول تعذيب وإيذاء نفسه، تتدخل 'فردفالد' حينًا بلين وحينًا آخر بقسوة لإبعاده. يبتعد عنها مقتربًا من النافذة المطلة على الساحة، ليبدأ ما يبدو أنه شجار بالأيدي ثم هدوء لبرهة.

وكأن 'جيمس' قد أوهمها بالهدوء، يدعوها لتجلس، يقترب من نافذة الغرفة أكثر بخطوات متثاقلة مديرًا لها ظهره ناظرًا إلى الأفق البعيد، ثم يعيد النظر إليها مجددًا، يفرك يده اليسرى باليمنى يلمس طرف عينه ويفرك لحاظها، وكأنما يعيد شريط حياته وماضيه، ويتذكر كل ما فعله من خير وشر، ويتذكر الكثير من النعيم والسعادة في حياته في الغوطة وما قبل طريق الهجرة.

تظهر على شفتيه تعبيرات وحركات، زمّها وانحرافها إلى اليمين واليسار. وجه شاحب متعرّق، وعينان متسعتان وجاحظتان تنظران حولهما بفزع، من جديد شفاه مرتعشة ومتشنجة، جسد يرتجف بشكل لا إرادي وكأن الرهبة تتحكم به، حركة صدره وتواترها يوحيان بأنفاس متسارعة ومتقطعة، يفتح النافذة الكبيرة على مصراعيها وكأنّما يطلب «أوكسيجينًا» يتنفّسه بعد أن نفذ، قبضات اليدين مشدودة بإحكام، التوتر الشديد بادٍ وجليّ.

ولسان حاله كمن يبحث عن معنى للحياة، ويحاول فهم سبب وجوده على الأرض بعد ندم أصابه. ربّما سيطرت عليه فكرة الموت حينها، فقد أزِف الرَّحيلُ ودنا وأقترب وحان الأجلُ.

ثم يرمي 'جيمس' نفسه من النافذة فجأة...

تسرع 'فردفالد' نحوه بخطوات سريعة علّها تمسك بطرفه أو تمنعه من دون جدوى. ثم تطل من النافذة لتتفقده. عيناها مفتوحتان على أوسع مدى وفمها أيضًا بشكل كبير للغاية، حاجباها مرتفعان، حالة من الذهول والانبهار الكامل تسيطر عليها. تنزل درجات السلم مسرعة لتصل إلى الساحة وإذ قد اخترق الوتد الحديدي جسده. تنظر إليه مصدومة، نظرة خالية ومنفصلة عن الواقع، تعبيرات وجه متجمّدة ثمّ تصلب في كامل جسدها من دون أن تبدي أدنى حركة، ثم تتراجع إلى الخلف كمن يريد الهروب من الحقيقة والواقع، إلى أن تصل لحافة البئر الذي يتوسط الساحة والقريب من الجسد المخوزق، وبحركة غير مدروسة تسقط في البئر.

تستمر شاشات الكاميرات كافة في عرضها لصور ساكنة دون أي تبدل في الصورة لحين دخول أوّل موظفي القلعة واكتشاف الجثة.

ينتابنا الظلام، ويسيطر اليأس على عقولنا، أو الترف أحيانًا، قد تراودنا أفكار مدمرة تحاول إقناعنا بأنّ الحياة التي نعيشها غير كاملة، وأن حالنا التي نحن عليها ناقصة، وأن

السعادة والراحة والهناء والتفوق والحرية على الضفة المقابلة للمكان والحال الذي نحن عليه. قد نشعر أن الحياة خذلتنا، فندخل في دوامة من الآلام النفسية تشوش رؤيتنا وتخنق أنفاسنا، وتجعلنا نشعر بالعجز والفراغ. تجعلنا نغوص في ظلمات بحر لجي حالك السواد. قد يُشَبَّه لنا طوق نجاة يوهمنا بالخلاص ويكون حقيقةً هو درب انتحار ونهاية حزينة تترك جروحًا غائرة.

الحياة ليست مستقيمة دائمًا. تأتي فترات مظلمة وأخرى مضيئة. وفترات أخرى لا نكاد نجيد الرؤية فيها، لا يكاد الضوء يقضم هذا الظلام، نفتقد فيها للرؤية الحقة، نفتقد فيها للمحاكمة الحقيقية لما نحن فيه. ينقصنا الصبر أوّلًا لنمزجه بالحكمة لينبثق فجر يوم جديد. ينقصنا الوعي الذاتي، أن يدرك الشخص أدواته، وأن يعي مشاكله، ومواطن التميز والخلل لديه بصدق.

في أحلك الليالي، يجب ألّا نفقد الأمل. فهناك دائمًا شعاع من النور ينتظرنا في نهاية النفق. عوضًا عن الاستسلام، علينا أن نقاوم الظلام بقوة الإرادة والبحث عن ذلك البصيص الصغير من السعادة الذي يُشعل شمعة في العتم.

***